الفصل الحادي عشر

فيتنام: سداد ثمن سياسة الاحتواء

"عندما أخذتنا الحماسة الوطنية في سنوات كنيدي، سألنا أنفسنا: ما الذي يمكن أن نفعله من أجل وطننا؟ فأجاب وطننا: أقتل الفيتناميين الشيوعيين"

(فيليب كابوتو)

«إشاعة حرب»

أكره كنيدى خروشوف على التراجع عن موقفه فى كوبا، لأن الولايات المتحدة كانت قد حققت تفوقاً تاماً فى الأسلحة النووية، وأنظمة إطلاق القذائف، وفى أعالى البحار. بعد انتهاء الأزمة، أقسم السوفييت أنه لن يحدث أبداً أن يعرضوا أنفسهم لمثل هذه المذلة مرة أخرى؛ فبدأوا فى برنامج مكثف لتحديث وتقوية أسطولهم، ولبناء أسلحة نووية ذات قذائف عابرة للقارات (ICBM) لنقلها. وكان رد كنيدى و«ماكنمارا» على ذلك، هو زيادة خطى الإنتاج الأمريكى؛ فما كان من الروس إلا أن عجلوا سرعة برنامجهم، وازداد سباق التسلح سوءاً.

عندما كان كنيدى مرشحاً للرئاسة، كان ينتقد سياسة إيزنهاور الدفاعية، لأن إيزنهاور كان يثق فى القنابل الكبيرة أكثر مما يجب. وكان هدف كنيدى هو أن يكون قادراً على الرد على أى هجوم شيوعى، على أى مستوى؛ فانطلق لبناء القوة المضادة للتمرد التى يمكنها أن تمحى أى عصيان مسلح، أو ثورة فى أدغال آسيا، أو

جبال أمريكا الجنوبية. كان كنيدى يريد أن يثبت للعالم أنه ـ وفى وجود قوات قمع التمرد معه ـ لا جدوى لما أطلق عليه حروب التحرير الوطنية، فعن طريق القبعات (البيريهات الخضراء) ـ وهو الاسم الذى أطلق على تلك القوات ـ سوف يفوز الغرب بمعركة الحرب العالمية الثالثة.

ارتكز كنيدى ـ بشدة ـ على التكنولوجيا، لكى يتغلب على نقص الأيدى العاملة، وأعطى «البيريهات الخضراء» الأولوية فى استخدام أحدث معدات الجيش. إن المفهوم ـ ككل ـ راق لنزعة كنيدى الطبيعية إلى حكم الصفوة، لأن قوة «البيريهات» ضمت أفضل الضباط والمتطوعين بالجيش من الشباب، الذين حصلوا على تدريبات إضافية، باستخدام أفضل المعدات، وحازوا على امتيازات خاصة؛ باعتبار أن هذه القوات كانت النظير العسكرى لفرق حفظ السلام، وكانت مهمتها هى تطبيق الوسائل الفنية والمهارات الأمريكية فى حرب العصابات، وحل المشاكل التى حيّرت الفرنسيين. وفى حفل تخرج فى الكلية الحربية الأمريكية الشهيرة «الوست بوينت»، قال كنيدى إنه سيطبق «نمطاً جديداً تماماً من الاستراتيچيات». ومن أعظم محاسن قوات قمع التمرد ـ خاصة بعد أزمة كوبا ـ أنها تجنبت المواجهة المباشرة مع الاتحاد السوفيتى، وبذا كانت نسبة مخاطر تصعيد الموقف إلى حرب نووية ضئيلة.

من وجهة نظر كنيدى، ووجهة نظر مستشاريه، ومن وجهة نظر ملايين المواطنين الأمريكيين، فإن الولايات المتحدة ستصبح قادرة على تحقيق ما فشلت فيه الأجناس البيضاء الأخرى؛ لأن الدوافع الأمريكية كانت مجردة من المطامع الشخصية من ناحية، ومن ناحية أخرى لأن الولايات المتحدة برعت فى دروس حرب العصابات، فلن تحاول أن تسحق العدو، أو أن تخوض حرباً تقليدية بحتة، كما فعل الفرنسيون فى ڤيتنام. وبدلاً من ذلك، سوف تقوم «البيريهات الخضراء» بتقديم المشورة للقوات المحلية، بينما تقوم الأجهزة المدنية الأمريكية بمساعدة الحكومات على البدء فى إصلاحات سياسية تتولى فصل رجال حرب العصابات عن الشعب. وستثبت قوات

كنيدى المضادة للتمرد للشعوب أن الأحرار يقدمون حلاً وسطاً بين الاستعمار والشيوعية.

حانت الفرصة العظيمة فى ڤيتنام الجنوبية، وكانت ذات مميزات عديدة فلم يكن «دييم» ديكتاتوراً قاسياً بقدر ما كان مستبداً من الدرجة الثانية. كان أمينا ـ إلى حد ما ـ ومخلصاً لوطنيته؛ لقد استهل برنامجاً للإصلاح الزراعى كان نموذجاً يحتذى به، على الأقل على الورق. وكان الأمريكيون موجودين فى ڤيتنام بالفعل، وبصحبتهم مستشارون عسكريون واقتصاديون. وأخيراً قدمت ڤيتنام للبيريهات الخضراء أرضاً مثالية للمعركة؛ حيث كان من الملائم تماماً الدخول فى عمليات صغيرة الحجم، إما فى الادغال أو فى حقول الأرز، وكذلك كان يجب التركيز على كسب عواطف وعقول الناس عن طريق تقديم المساعدات الفنية والطبية لهم. ومن وجهة نظر كنيدى كانت ڤيتنام المكان الأمثل للتدخل، حيث كان بإمكانه إظهار اهتمامه بالعالم الثالث والإثبات ـ بالدليل القاطع ـ أن الولايات المتحدة تنفذ وعودها وارتباطاتها (كانت معاهدة «السيتو»، التى أبرمت فى ١٩٥٤ قد نصت على حماية ڤيتنام الجنوبية، إذا تعرضت لهجوم خارجى)؛ بالإضافة إلى ممارسة اللعبة الجديدة المثيرة : اتخاذ موقف مضاد للتمرد.

كانت الصعوبة الرئيسية الوحيدة ترتكز فى غموض الوضع القانونى. إن ڤيتنام الجنوبية كانت دولة مستقلة ذات سيادة؛ فقط لأن «دييم» أعلن ذلك. ولكن وفقاً لشروط معاهدات جنيف، التى عقدت فى ١٩٥٤، (والتى لم توقع عليها الولايات المتحدة، وإن تعهدت بألا تلجأ للقوة لكى تبطلها) لم تكن ڤيتنام الجنوبية دولة، وإنما إقليم يتولى الفرنسيون إدارته لحين إجراء الانتخابات. بالإضافة إلى ذلك، نصت معاهدة ١٩٥٤، على أنه يتعين على «هوشى مينه» فى ڤيتنام الشمالية، و«دييم» فى ڤيتنام الجنوبية، ألا يسمحا بدخول قوات أجنبية إلى مناطق نفوذ كلّ منهما؛ فقامت الولايات المتحدة بإعادة تعريف اتفاقيات جنيف، بحيث اختلقت عمداً أن جنيف قد أنشأت ڤيتنام الشمالية وڤيتنام الجنوبية. واكتمل ذلك التعريف الجديد فى ١٩٦٣،

عندما أدعى «دين راسك» وزير الخارجية: «أن الجانب الآخر ملتزم تماماً ـ فى تسوية جنيف الأصلية التى عقدت فى ١٩٥٤، بالترتيبات التى أقتضت أن يكون لڤيتنام الجنوبية وجود مستقل».

أما ثانى عقبة أساسية، فكانت طبيعة الصراع. بعد أن انتهى «دالاس» من كتابة معاهدة السيتو، ومدّ نطاق الحماية إلى ڤيتنام الجنوبية، أكد لمجلس الشيوخ أن الولايات المتحدة لن تـطالب ـ تحت أى ظرف من الظروف ـ بإخماد ثورة داخلية، أو بالاشتراك فى حرب أهلية. وبافتراض أن ڤيتنام الجنوبية كانت دولة ذات سيادة، أصبح السؤال هو التأكد من مصدر معارضة الحكومة، وهل كان من الداخل أم من الخارج؟ وكان من المستحيل ـ تقريباً ـ إجابة ذلك السؤال. فبعد ١٩٥٦ ركز أهالى ڤيتنام الشمالية اهتماماتهم على إعادة البناء فى الأرض التابعة لهم، وعلى إقامة الاشتراكية هنالك. وبعد أن رفض «ديم» إجراء الانتخابات فى ١٩٥٦، بدأ «الڤيت مينه» يضجرون فى الجنوب؛ ومنذ بداية ١٩٥٧ تولوا تنفيذ حملة منظمة لاغتيال رؤساء القرى ليحطموا سيطرة «ديم» على الريف، حيث كانوا يعانون الاضطهاد السياسى، مثلهم فى ذلك مثل كل معارضى «ديم»، الذى كان عاجزاً عن التمييز بين الشيوعيين وأعدائهم، فى الجماعات التى كانت تقاوم حكومته. وفى أوائل ١٩٦٠، قام ثمانية عشر شخصاً من الأشخاص البارزين ـ بما فى ذلك عشرة من الوزراء السابقين فى حكومة ديم ـ بإصدار بيان للاعتراض على محاباة «دايم» لأقاربه فى التعيين فى الوظائف.. إلخ، وكذلك على «الاعتقالات المتواصلة التى أدت إلى امتلاء السجون عن آخرها»، وطالبوا بإجراء انتخابات حرة، فما كان من «ديم» إلا أن زجّ بهم جميعاً فى السجون.

فى مارس ١٩٦٠ بدأت ثورة واسعة النطاق، وأطلق «ديم» على معارضيه اسم «ڤيت كونج» أو الشيوعيين الڤيتناميين. وقامت جماعة «الڤيت كونج» بتأسيس «جبهة التحرير القومية -NLF»، كأداتها السياسية، وزادت حدة الصراع رغم ضآلة الدعم الذى تلقاه «الڤيت كونج» من «هوشى مينه» فى الشمال ـ كانت الغالبية

العظمى من «الڤيت كونج» من ڤيتنام الجنوبية، كما أنهم استولوا على معظم أسلحتهم ومعداتهم من جيش «دييم». وفى سبتمبر ١٩٦٠ قام الحزب الشيوعى فى ڤيتنام الشمالية بدعم رسمى لجبهة التحرير القومية، وطالب بتحرير ڤيتنام الجنوبية من الاستعمار الأمريكى.

فى ضوء تلك الظروف تزايدت صعوبة إثبات أن ڤيتنام الجنوبية كانت ضحية اعتداء «خارجى»، ومع ذلك.. فإن وزير الخارجية الأمريكى لم تراوده أية شكوك من أن ڤيتنام الشمالية كانت ترتكب العدوان، كما لم يتشكك فيما كان معارضا للخطر. إن آراء «راسك» لم تتغير إطلاقاً منذ ١٩٥٠ حين قرر أن الصينيين الشيوعيين «ليسوا صينيين». لقد كان رأيه أن الحرب الدائرة فى ڤيتنام كانت تحت رعاية هانوى التى كانت بدورها تتصرف باعتبارها وكيلاً لبكين؛ فإذا سمحت الولايات المتحدة بأن يفوز «الڤيت كونج» فى ڤيتنام الجنوبية فسرعان ما سوف تبتلع الصين كل ما تبقى من آسيا. ومرة تلو الأخرى أخذ «راسك» يحذر الأمريكيين من أخطار «ميونيخ أخرى» فى الشرق الأقصى، وبذلك كان يساوى بين «هوشى مينه» وهتلر ويلوّح بخطر تكرار الشبح المرعب لسياسة المهادنة مثلما حدث مع هتلر عام ١٩٣٨.

على أية حال لقد استمر «راسك» فى تكرار التحذير من أخطار ميونيخ أخرى، ولكن فكرة أن يصبح «هوشى مينه» هتلر آسيا؛ كانت سخيفة لدرجة أن الوزير أصبح ـ تقريبا ـ مصدر حرج للإدارة الأمريكية. ومع ذلك استمر «راسك» على إصراره، لقد جاء فى مذكرات مساعدى كنيدى ما يفيد بأن «راسك» كان مصدراً للسخرية. إذ أشاروا إلى بطء وسطحية تفكيره، وشخصيته المتغطرسة، وآرائه الصارمة، لقد صوره «آرثر شليسينجر» و «تيودور سورنسن» على أنه شخصية من الماضى، ورجل ما زال واقعاً تحت تأثير كليشهات أواخر الأربعينات، إذ كان هدف وزير الخارجية الأساسى، هو تطويق الصين الشيوعية تماماً ـ كما فعل «أتشيسون» مع روسيا. لقد تعجبوا من إصراره على استخدام القوة العسكرية، وهاجموه بأنه عجز تماماً عن فهم الفكر

الجديد لسياسة كنيدى الخارجية. ولكن «شليسينجر» و «سورنسن» أهملا ذكر أن كنيدى هو الذى اختار «راسك» لذلك المنصب ـ بعد توصية قوية من «أتشيسون» ـ وأن «راسك» لم يخف معتقداته أبداً.

ومع ذلك، لم يكن «راسك» الوحيد الذى أوصى بتدخل أمريكى فى ڤيتنام، كما لم يكن قرار إنقاذ «دييم» انحرافاً أو نتيجة مؤامرة. إن كل ما دون فى سجل كنيدى، أشار إلى تزايد المساعدات المرسلة إلى «دييم»، وأن كل العاملين فى إدارة كنيدى ـ تقريبا ـ أيدوا القرار. إن هيئة الاركان وافقت على القرار، ولكنها لم تدفع كندى إلى التدخل فى ڤيتنام؛ وهو نفس موقف الشركات الأمريكية التى حازت على إمتيازات فى آسيا، ونفس موقف أنصار مبدأ «آسيا ـ أولا» من الحزب الجمهورى.

إن الجنرال «ويليام وستمورلانـد»، الذى تولى قيادة العمليات العسكرية الأمريكية فى ڤيتنام الجنوبية من ١٩٦٤ إلى ١٩٦٨، قال ـ فيما بعد ـ إنه قبل سفره إلى ڤيتنام ناقش الموقف مع كل كبار المسئولين فى البيت الأبيض، ووزارة الخارجية، والبنتاجون؛ لقد اتفقوا جميعا على أنه يجب على الولايات المتحدة أن تصد المعتدين من الشمال باستخدام كافة الوسائل الضرورية، ولم يتذكر أى معترض على ذلك خلال هذه الاجتماعات. كما كان هناك اتفاق جماعى على ضرورة أن تثبت الولايات المتحدة للصينيين أن حروب التحرير القومية لم تنجح، وأن تثبت للعالم الثالث أنها لا تتراجع عن التزاماتها. كان مستشارو كنيدى المقربين ـ بقيادة «والت روستو» و «ماك جورج باندى» ـ متمسكين بتلك الآراء بمنتهى القوة. ولقد أكد «وستمورلاند» على أن الولايات المتحدة لم تدخل ڤيتنام، ولم تبق هناك، بسبب مؤامرة عسكرية أو تآمر المجمع الصناعى العسكرى، أو أى شكل آخر من أشكال التآمر. إن خوض الولايات المتحدة الحرب فى ڤيتنام جاء نتيجة مباشرة لرؤية معينة للعالم لم يختلف عليها أى مسئول فى السلطة، كما جاء هذا التدخل كنتيجة منطقية لسياسة الاحتواء التى كانت قد وصلت إلى ذروتها.

كانت فيتنام حرب الأحرار. وقد اعتمدت على نفس الأسس التى استخدمها «ترومان» «وأتشيسون». وعلى حد تعبير «سورنسن»، فإن الولايات المتحدة كانت قادرة على «توفير تدريب، وتدعيم، وتوجيه، واتصالات، ووسائل نقل، ومخابرات، وأسلحة ومعدات، بشكل أفضل» لصد الهجوم الشيوعى. وبفضل المهارات الأمريكية والجنود الفيتناميين (قال كنيدى «إن فيتنام الجنوبية ستقدم الرجال المطلوبين») سوف تعّم الحرية فى كل مكان.

فى بداية ١٩٦١، بدأ كنيدى يرسل مستشاريه إلى فيتنام الجنوبية، لكى يبلغوه بما كان مطلوباً، ولتعليم «دييم» كيفية أداء المهمة. وكان على رأس أول بعثة إلى فيتنام الجنوبية «ليندون جونسون» نائب الرئيس، ورجل السياسة الذى جاء من تكساس، والذى اتسم بالحيوية والنشاط. لقد عاد فى مايو ١٩٦١، وهو عاقد العزم على إنقاذ «الألامو»* من العدو الذى أحاط بها، وأعلن «إن القرار الرئيسى فى جنوب شرق آسيا يكمن هنا. لابد وأن نقرر إذا كنا سنساعد هذه الدول بأفضل إمكانياتنا، أو إذا كنا سنعلن عن عجزنا فى المنطقة ونسحب قواتنا الدفاعية إلى سان فرانسيسكو، ونعود إلى مفهوم (القلعة الأمريكية)» ولم يشرح جونسون أبدا كيف سيؤدى سقوط «ديم» إلى طرد الولايات المتحدة من قواعدها الآسيوية الأساسية فى الفلبين، و«فورموزا»، و«أوكيناوا»، واليابان، ولاداعى لذكر: «جوام»، و «ميدواى» و «هاواى».

كان فريق كنيدى ـ مثله فى ذلك مثل فريق «ترومان ـ أتشيسون» ـ يشعر أن الولايات المتحدة لا تستطيع أن تتحمل التراجع فى أى مكان فى العالم. وعلى حد قول «چونسون» فى تقريره، إذا لم تقم الولايات المتحدة بمساندة «دييم» سيكون ذلك بمثابة «إبلاغ العالم أننا لا نحترم المعاهدات التى نـدخلها، ولا نساند أصدقاءنا» وهى تقريباً نفس الكلمات التى استخدمها كنيدى فى وصف أزمة برلين، التى كانت متزامنة معها. كما أن إدارة كنيدى افترضت أنه إذا قررت الولايات

* ألامو.. هو اسم قلعة فى سان أنطونيو بولاية تكساس لقى فيها جنود تكساس الهزيمة على أيدى قوات المكسيك عام ١٨٣٦. (المترجم)

المتحدة أن تفعل شيئا، فلا توجد حدود لما تستطيع هذه الأمة أن تحققه، مما قاد إلى استنتاجات «جونسون»، التى لا مفر منها: «إننى أوصى بأن نتحرك للأمام فوراً، وأن من تقوم بعمل كبير لمساعدة هذه الدول للدفاع عن نفسها»، ولن تكون هناك حاجة للقوات الأمريكية المقاتلة، لأن إرسالها سيكون بالفعل خطأ، لأنه سوف يعيد احياء المشاعر المعادية للاستعمار فى آسيا كلها. وكان جونسون يعتقد أن الڤيتناميين الجنوبيين أنفسهم قادرون على خوض المعركة، بمساعدة التدريبات والمعدات الأمريكية.

بعد مرور فترة قصيرة على رحلة «جونسون» إلى «سايجون»، ذهب الأستاذ الجامعى الاقتصادى «أيوچين ستالى» ـ من جامعة «ستانفورد» ـ إلى سايجون لمساعدة «دييم» بإبداء المشورة له. وقام بتقديم عدة اقتراحات كان أهمها هو أن يتولى «دييم» تأسيس برنامج القرية الاستراتيچية الصغيرة، وكانت الفكرة هى أن تجميع المزارعين ـ معاً ـ سيسهل عملية حمايتهم من «الڤيت كونج»، وفى نفس الوقت سيمنع «الڤيت كونج» من تجنيدهم، أو فرض ضرائب عليهم، أو الاختفاء بينهم فى القرى. إلا أن الواقع العملى أثبت أن القرى الاستراتيجية تحولت إلى معسكرات عمل، فلقد قامت قوات «دييم» بإكراه الفلاحين على ترك أراضٍ عاشت فيها عائلاتهم منذ أجيال، وبذلك انقلب آلاف الڤيتناميين ضد الحكومة، واستمرت الحرب تسير بطريقة سلبية. ورغم تمركز «الڤيت كونج» فى مناطق غير آهلة بالسكان إلا أنهم سيطروا على نصف البلاد تقريباً.

فى أكتوبر ١٩٦١، أرسل كنيدى بعثة أخرى إلى سايجون، برئاسة «روستو» و«ماكسويل تيلور». وكان «روستو» أستاذاً بجامعة «ميشيجان»، ومؤرخا اقتصادياً مشهوراً على الصعيد الدولى. أما تيلور فكان بطل حرب وكان يشغل منصب مدير الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة، وكان من أكثر من تميزوا بانتقادهم لسياسة إيزنهاور، فى الاعتماد على الردع الشامل. ولقد كون الأستاذ الجامعى والجندى فريقاً فيما بينهما، من المفترض أنه كان يمثل أفضل وأبرع ما وجد فى الولايات المتحدة.

لقد قدمت بعثة «روستو ـ تيلور» تقريراً، مؤداه أن فيتنام الجنوبية لديها من الحيوية والنشاط ما يبرر تدخل الولايات المتحدة بشكل جوهرى، وقال «تيلور» إن الصعوبة الرئيسية كانت أن الفيتناميين الجنوبيين كانوا يشكون أن الأمريكيين سوف يساعدونهم فعلاً، ولذلك اقترح زيادة حجم التدخل الأمريكى. لقد أراد أن يقوم جيش فيتنام الجنوبية بالهجوم، على أن تتولى القوات الأمريكية مهمة الغطاء الجوى والاستكشاف. كما قام «تيلور» بحث كنيدى على إرسال وحدة مقاتلة، قوامها عشرة آلاف رجل إلى فيتنام الجنوبية. وكان «روستو» يرى أن «ديم» يصلح للمهمة، إذا ضغطت عليه الولايات المتحدة من أجل إجراء بعض الإصلاحات. واتفق «روستو» و «تيلور» على أن السبيل إلى النصر كان وقف التسلل من الشمال، لأنه إذا استمر. فلن تكون هناك نهاية للحرب. لقد دافع «روستو» بقوة عن سياسة الانتقام من فيتنام الشمالية، عن طريق قصفها بالقنابل، لمضاهاة تأييد هانوى لـ«الفيت كونج». ووافق كنيدى على الاستنتاجات الاساسية (رغم أنه رفض قصف فيتنام الشمالية)، وأمر بزيادة القوات والمعدات التى كانت تشحن إلى «ديم». عندما ترك إيزنهاور الرئاسة، كان يوجد بفيتنام الجنوبية عدة مئات من المستشارين الأمريكيين، وصل عددهم إلى ١٣٦٤ فى فترة بعثة «روستو ـ تيلور» ثم ارتفع عددهم إلى ١٠,٠٠٠ فى نهاية سنة ١٩٦٢، وإلى ١٥,٠٠٠ فى نوفمبر ١٩٦٣. أما المعدات ـ خاصة طائرات الهليكوبتر ـ فكان معدل وصولها أسرع من ذلك.

كان التزام أمريكا أمام «ديم» من القوة والصلابة؛ بحيث إن سايجون ـ كما جاء فى تقرير «داڤيد هالبرستام» بالنيويورك تايمز ـ «زادت اقتناعا، عن أى وقت مضى، بأنها وضعت حليفتها أمريكا فى مركز حرج، وأنها يمكنها أن تفعل أى شئ تريده، وأن استمرار الدعم مضمون نظراً للخطر الشيوعى، وأنه لا يمكن للولايات المتحدة ـ بعد أن تعهدت بالتزامها ـ أن تعترف فجأة بأنها ارتكبت خطأً شنيعاً». لقد ركز تقرير «روستو ـ تيلور» تماماًعلى الرد العسكرى، فركز كنيدى جهوده على إرسال معدات عسكرية ثقيلة إلى سايجون. وحاول السفير الأمريكى أن يمارس بعض الضغوط على

«دييم» ؛ لكى يجرى بعض الإصلاحات السياسية والاقتصادية، ولكن الأخير تجاهله. عندما كانت قوات «الڤيت كونج» تنجح فى تحرير قرية ما، كانوا يخبرون الفلاحين بأن الأرض أصبحت ملكا لهم، وعندما كان جيش ڤيتنام الجنوبية يستولى على قرية كان يأتى معه بملاك الأرض، الذين كانوا يقومون بجمع الإيجارات المتأخرة، وغالباً لمدة خمس سنوات مضت.

ومع ذلك، كان يبدو أن الحرب على وشك الانتهاء. فبعد أن قام «ماكنمارا» بزيارة ڤيتنام فى يونيو ١٩٦٢ ، أدلى بتقرير جاء فيه أن: «كل ما لدينا من مقاييس كمية، تشير إلى إننا نكسب هذه الحرب». وفى مارس ١٩٦٣ ، أعلن «راسك» إن الصراع ضد «الڤيت، كونج» قد «أخذ مساراً مهماً» ، وأنه أوشك على الانتهاء. وبعد مرور شهر، قال أن هناك «اتجاهاً مطرداً فى ڤيتنام الجنوبية، نحو نظام دستورى يعتمد على الموافقة الشعبية» ، كما أدلى القادة الأمريكيون الموجودن بالموقع ببيانات مماثلة. وفى مايو ١٩٦٣ ، ظهرت انتفاضات بوذية ضد «دييم» بسبب الاضطهاد الدينى، أدت إلى تقليل تفاؤل المسئولين. ولكن لم يترتب على تحرك البوذيين ضد «دييم» سوى بعض الحرج، فلم يترتب عليه إعادة تقييم السياسة الأمريكية. واستمر كنيدى فى زيادة حجم قوات الطوارئ العسكرية الأمريكية، ثم أعلن فى مؤتمر صحفى أن «هدفنا هو خلق حكومة مستقرة هناك، تشترك فى صراع للمحافظة على استقلالها القومى. نحن نؤمن بشدة بذلك.. فى رأيى أن انسحابنا الآن سوف يؤدى إلى انهيار، ليس فقط ڤيتنام الجنوبية، بل جنوب شرق آسيا. ولذلك نحن باقون هناك» .

كان البيان الذى أدلى به كنيدى عبارة عن تلخيص موجز لاستمرارية السياسة، كأنما كانت ڤيتنام هى اليونان، وكوريا الجنوبية تتكرر مرة أخرى. فسرعان ما اشتركت «وكالة المخابرات المركزية» فى مؤتمرات فى سايجون للإطاحة بـ«دييم» ، وإيجاد حكومة كفؤ، ومستقيمة لتتولى السلطة ـ باختصار كما حدث فى كوبا، للعثور على بديل من بين الأحرار. كان «دييم» ارستقراطياً كاثوليكياً، لم ينجح فى

اكتساب كثير من المؤيدين من جيشه، كما لم تكن له صلات حقيقية مع أصحاب الديانات الأخرى من غير الكاثوليك الذين كانوا يمثلون غالبية الشعب. وكانت عمليات القمع التى قادها صارمة أكثر من اللازم، كما كان واضحاً أن برنامج القرية الاستراتيجية، والإصلاح الزراعى قد فشلا، وكان لابد من اختفائه. وفى نوفمبر ١٩٦٣، قام جيش ڤيتنام الجنوبية بالإطاحة بـ «دييم» ثم قتله هو وأخيه، وقد تم ذلك بموافقة وعلم وكالة المخابرات المركزية وإن لم يكن وفقاً لتعليماتها. ثم تولت السلطة حكومة عسكرية، كان بإمكانها أن تكون أكثر كفاءة فى خوض الحرب، ولكن فيما عدا ذلك، لم يكن لديها برنامج عمل ولا سياسة واضحة.

بعد الإطاحة بـ «دييم» اتصلت جبهة التحرير القومية بقيادات الجيش فى سايجون، وعرضت إجراء مفاوضات «للتوصل إلى وقف إطلاق النار، وحل المشاكل المهمة التى تعانى منها الأمة... بقصد الاتفاق على إجراء انتخابات عامة حرة، وتكوين حكومة وطنية ائتلافية، تتكون من ممثلين لكل القوات والأحزاب، والاتجاهات، والطبقات الموجودة فى ڤيتنام الجنوبية». وكانت هناك عناصر مهمة بين ضباط جيش ڤيتنام الجنوبية، ممن كانوا على استعداد لدراسة فكرة إقامة حكومة ائتلافية ومحايدة فى ڤيتنام الجنوبية، ولكن الأمريكيين فى سايجون وفى واشنطون رفضوا الفكرة من أساسها. وبعد مرور ثلاثة أسابيع على وفاة «دييم»، تم اغتيال كنيدى، وأصبح «ليندون جونسون» رئيساً.

فى ڤيتنام ـ وكل مكان آخر ـ استمر «جونسون» فى تنفيذ سياسة كنيدى. ففى رسالة بعث بها جونسون إلى ڤيتنام الجنوبية بمناسبة بداية العام الجديد ١٩٦٤، قام بتدعيم وجهة نظر المتطرفين فى جيش ڤيتنام الجنوبية، عندما أعلن أن «حياد ڤيتنام الجنوبية سيكون مجرد اسم آخر لسيطرة الشيوعيين، وأن الولايات المتحدة سوف تستمر فى إمدادكم وشعبكم بأكبر قدر من الدعم فى هذ الصراع المرير. وسوف نحتفظ فى ڤيتنام بمسئولين أمريكيين، وأدوات أمريكية، وفقاً لما تقتضيه الحاجة

لمساعدتكم على تحقيق النصر.» فى يوليو ١٩٦٤، انضمت موسكو وهانوى وباريس ـ معاً ـ فى إصدار نداء إلى عقد مؤتمر دولى فى جنيف، للتباحث حول اندلاع القتال فى لاوس والحرب فى ڤيتنام. ثم قامت الصين وجبهة التحرير القومى (بڤيتنام) وكمبوديا بمساندة الدعوة إلى المؤتمر، وكذلك السكرتير العام للأمم المتحدة، «يوثانت» (من بورما). فأجاب «جونسون» قائلاً : «إننا لا نثق فى المؤتمرات التى تعقد من أجل إقرار الإرهاب»، ثم أعلن ـ فى اليوم التالى ـ عن زيادة عدد المستشارين العسكريين الأمريكيين فى ڤيتنام الجنوبية من ١٦,٠٠٠ إلى ٢١,٠٠٠، بواقع ٣٠٠٪.

لقد ظلت الحكومة الأمريكية مؤمنة بأنه يمكنها الانتصار فى الحرب، عن طريق استخدام قدر محدود من القوة، من خلال الاعتماد أساساً على جيش ڤيتنام الجنوبية. وطوال صيف ١٩٦٤، استمر المسئولون الأمريكيون فى إصدار بيانات متفائلة؛ لقد ظل الإيمان راسخا ببرنامج عمل كنيدى ـ ماكنمارا، الذى تضمن: الرد المرن، والقوات المضادة للتمرد، والنظريات الجديدة الخاصة بالحرب المحدودة. وبعد مرور سنوات عديدة، عندما أصيب الجميع بالتعاسة من جراء الحرب، لجأت القوات العسكرية الأمريكية ومؤيدوها إلى الدفع بأن الفشل فى ڤيتنام الجنوبية، جاء نتيجة القصور فى استخدام القوة. لقد ادعت بعض القيادات العسكرية أنه كان بإمكان الولايات المتحدة أن تنتصر فى الحرب إذا قامت بإرسال عدد أكبر من القوات فى وقت مبكر. إن قدرة حكومة ڤيتنام الشمالية على مواجهة التصعيد الأمريكى خطوةً بخطوة، جعلت ذلك المنطق، منطقاً انهزامياً. وعلى أية حال فإن ذلك الإدعاء أظهر أن النقاد أصيبوا بنفس الرؤية الضيقة، التى دفعت الولايات المتحدة إلى المشاكل فى أول الأمر، وهى أن الصراع فى ڤيتنام الجنوبية كان عسكرياً.

إن جوهر المسألة هو أنه فى كل خطوة عبر الطريق، كان البيت الأبيض، والقوات العسكرية الأمريكية، وأجهزة المخابرات، ووزارة الخارجية على ثقة من أن الجهود

المبذولة كانت كافية، وان إرسال عشرة الاف فرقة أخرى، أو مائة ألف، أو خمسمائة طائرة هيليكوبتر أخرى، أو قصف ٣ أهداف أخرى بالقنابل، سوف تفى بالغرض. إن القيود التى كبلت العمليات الأمريكية فى ڤيتنام كانت قيوداً مفروضة ذاتياً، بالاضافة إلى عدة عوامل لعبت دوراً فى الحد من استخدام القوة، مثل عدم رغبة الشعب فى دفع ثمن باهظ للحرب أو التخوف من تدخل الصينيين. ولكن أهم الأسباب على الإطلاق، وراء ذلك التدرج فى مواجهة الموقف، هو أن إدارة كنيدى وإدارة جونسون كانتا على ثقة شديدة من أن المجهود المبذول كان كافياً لمواجهة الموقف. لقد أدت كل الاعتقادات القديمة ـ مثل فكرة أن الشيوعية لا يمكن أن تحصل على تأييد حقيقى، أو فكرة أن الآسيويين لا يمكنهم مواجهة الأساليب الفنية الحربية التى برع فيها الغرب ـ إلى الثبات على مبدأ الاستخفاف بالعدو.

كان «بارى جولدوتَر»، الذى رشحه الحزب الجمهورى للرئاسة فى ١٩٦٤، أحد السياسيين القلائل، الذين خالفوا القاعدة؛ إذ كان يرى ضرورة بذل جهود إضافية، بل وبسرعة. لقد قال «جولدوتر» إنه كان على استعداد لمواجهة هيئة الأركان المشتركة ومطالبتهم بالفوز، باستخدام كل الوسائل الضرورية، بما فى ذلك الأسلحة النووية، كما أنه أراد أيضاً أن تمتد الحرب إلى ڤيتنام الشمالية على أن تبدأ بغارات القصف الجوى.

وقَـبـلَ «جونسون» التحدى فى مرح. ففى الحملة الانتخابية لسنة ١٩٦٤، نشر خطة عمل، تتعهد بإجراء إصلاحات اجتماعية جوهرية فى الداخل، مع إقرار السلام فى الخارج وقدم نفسه فى صورة الرجل الحصيف الحكيم الذى يمكن الاعتماد عليه لإحراز النصر فى ڤيتنام، وفى نفس الوقت عدم انتشار الحرب. لقد رفض بازدراء شديد اقتراحات «جولدوتر» الميالة للقتال، قائلاً إن قصف ڤيتنام الشمالية سيؤدى إلى اتساع جبهة الحرب، وإلى اشتراك قوات أمريكية فى المعركة، وأصر بصفة خاصة على النقطة الأخيرة: «لن نرسل الشباب الأمريكى تسعة أو عشرة آلاف ميل بعيداً عن الوطن؛ لكى يؤدى مهمة يجب على الشباب الأسيوى أن يؤديها لنفسه».

وبنفس النمط الذى أصبح مألوفاً ـ فى ذلك الحين ـ فى الحملات الانتخابية للرئاسة الأمريكية خلال الحرب الباردة، قام «جولدوتر» باتهام «جونسون» بأن موقفه من الشيوعيين لم يكن صارماً بالقدر الكافى، فكان على «جونسون» أن يثبت أن بإمكانه أن يكون حازماً وحليماً فى نفس الوقت، وصارما وحكيما فى نفس الوقت أيضا. ولذلك انتهز الفرصة التى حانت له فى ٢ و ٣ أغسطس ١٩٦٤، عندما تسلم تقارير تفيد بأن زوارق طوربيد تابعة لڤيتنام الشمالية، قامت بمهاجمة مدمرات أمريكية فى خليج «تونكين». وفى ذلك الوقت تشكك البعض، فيما إذا كانت تلك الاعتداءات قد وقعت بالفعل، رغم أن نيويورك تايمز «وغيرها من الصحف» إقترحت أن البحرية الأمريكية هى التى حرضت على تلك الاعتداءات، عندما قامت بمرافقة فرق فدائية من ڤيتنام الجنوبية فى رحلاتها للإغارة على ڤيتنام الشمالية. وفيما بعد فى ١٩٦٨، أثناء جلسات الاستماع إلى «السيناتور فولبرايت» بمجلس الشيوخ، اقتنع الملايين بأن عملية خليج «تونكين» كانت خدعة. وعلى أية حال لقد اتهم «جونسون» ـ دون فحص أو تمحيص ـ ڤيتنام الشمالية بارتكاب «فعل عدوانى فى منطقة مفتوحة فى أعالى البحار».

كانت نتيجة ذلك، صدور قرار خليج «تونكين». ومثلما حدث مع إيزنهاور فى مشكلة الشرق الأوسط، طلب «جونسون» موافقة مفتوحة (شيك على بياض) تسمح له بتوسيع نطاق الحرب وفقاً لما يراه مناسباً، دون الرجوع إلى الكونجرس؛ وحصل على تلك الموافقة عندما طلب الرئيس من الكونجرس التصريح له باستخدام «كل الوسائل الضرورية»؛ لكى «يصد أى هجوم مسلح على القوات الأمريكية». وبالإضافة إلى ذلك منح الكونجرس للرئيس سلطة «منع وقوع أية اعتداءات أخرى»، وكذلك اتخاذ «كل الإجراءات الضرورية» لحماية أية دولة من دول حلف «السيتو»، قد تطلب مساعدتها «فى الدفاع عن حريتها». وعند الاقتراع على القرار فى مجلس

النواب ـ يوم ٧ أغسطس ١٩٦٤ ـ تمت الموافقة عليه بالإجماع (٤١٦ صوتاً ضد لاشئ). وفى مجلس الشيوخ، تولى «فولبرايت» إقناعهم بالموافقة على القرار؛ إذ أصر على أنه يتعين على الكونجرس أن يثق فى الرئيس، ورفض تعديلاً للقرار، كان سيؤدى بالتحديد إلى منع الرئيس من استخدام سلطاته لتوسيع نطاق الحرب. ولم يكن قد تبقى على الانتخابات أكثر من ثلاثة شهور، لذا سعى «فولبرايت» إلى عدم إحراج جونسون، ثم جاء اقتراع مجلس الشيوخ فى صالح القرار بـ ٨٨ صوتاً ضد صوتين («واين مورس» و «إرنست جرونينج»).

فى نفس الوقت، أرسلت هانوى مندوبين لجس النبض بالنسبة لاحتمالات السلام. لقد عرض «هوشى مينه» سراً رغبته فى التفاوض، ربما بدافع من خوفه من قرار خليج «تونكين»، أو ربما شجعه على ذلك، الهجوم الذى شنه جونسون على «جولدوتر»، متهماً إياه بالتهور والطيش. لم يكن جونسون أو مستشاريه أو قادة جيش ڤيتنام الجنوبية فى سايجون ـ لديهم استعداد ـ ولو ضعيف ـ لقبول حل وسط، بديلاً للحرب؛ لأن ذلك كان سيعنى تكوين حكومة ائتلافية فى ڤيتنام الجنوبية، ذات علاقات وثيقة بهانوى. كما لم يكن هناك شك تقريباً فى أن الانتخابات ستؤدى إلى استبعاد قيادات جيش ڤيتنام الجنوبية كلية. وكان سيلى ذلك اتحاد سايجون الجديدة مع الشمال، وإصدار إمر بانسحاب القوات الأمريكية من ڤيتنام. وكان التفكير فى مثل تلك التوقعات يصيب «جونسون» بآلام شديدة، خاصة وإنه لم يكن ـ بكل تأكيد ـ يرغب فى إتاحة الفرصة أمام «جولدوتر» لكى يتهمه باسترضاء، أو، ضياع ڤيتنام. ولذلك رفض «جونسون» أن يتفاوض، واستمرت الحرب، وصوّت الناخبون الأمريكيون لصالح «جونسون» الذى اكتسح «جولدوتر».

وظل الطريق إلى النصر مختفيا. وحقيقة الأمر هى أنه عندما تزايد اتجاه مسار الحرب ضد سايجون، أصبح السؤال الحقيقى هو: هل تستطيع حكومة ڤيتنام الجنوبية أن تستمر فى المقاومة؟ وليس هل ستنتصر أم لا. إن المستشارين العسكريين

الأمريكيين قاموا ـ قبل ١٩٦٠ ـ بتدريب جيش ڤيتنام الجنوبية على فنون الحرب التقليدية، على أساس أنه إذا قررت هانوى أن تتحرك ضد سايجون، فلابد وأنها ستشن هجوماً على نمط الهجوم على كوريا الشمالية. وكثيراً ما أشير إلى ذلك العامل ـ فيما بعد ـ على أنه عنصر أساسى فى المشاكل التى واجهت جيش ڤيتنام الجنوبية. ولكن كان ذلك تمويهاً على المصدر الحقيقى للمشاكل، إذ لم يكن الضباط على اتصال حقيقى بالقوات، التى كان نصفها من الكاثوليك، وعديد منها من ڤيتنام الشمالية، كما تفشى الفساد، ووصل عدد الفارين من الجيش إلى أعلى معدل له فى العالم. والحقيقة هى أن جيش ڤيتنام الجنوبية كان سيتبدد فى مواجهة هجوم تقليدى، أكثر من بعثرته فى مواجهة حرب العصابات. وببساطة لم تعد هناك رغبة فى القتال؛ لأنه لم يعد هناك حافز على القتال.

أصبحت مشكلة «جونسون» شديدة الخطورة، بعد فشل جيش ڤيتنام الجنوبى؛ إذ أصبح عليه أن يختار بين التفاوض، وبين اشتراك قوات مقاتلة أمريكية لإنقاذ الموقف. وإذا استمر على سياسة كنيدى، وهى توفير كل أشكال الدعم المادى، بالإضافة إلى مستشارى البيريهات الخضراء، فإن حكومة سايجون سوف تنهار، وسوف يستولى «الڤيت كونج» على كل ڤيتنام الجنوبية.

وهكذا فإنه بعد عملية خليج «تونكين» والانتخابات، أصبح محور المناقشات التى كانت تدور فى واشنطن هو: هل يتم تصعيد الدور الأمريكى فى الحرب، أم هل نتفاوض؟ كان كلا الخيارين مفتوحاً، لقد عبرت هانوى ـ بعدة طرق ـ عن استعدادها للتفاوض، ولكن لم يهتم بذلك غير عدد قليل من المسئولين الأمريكيين. أما «جونسون» و«راسك» ومساعدو كنيدى الذين استمروا فى إدارة «جونسون»، فقد ظلوا على موقفهم من رفض المفاوضات. وعلى حد تعبير «داڤيد كراسلو» و«ستيوارت لورى»: «فى ١٩٦٤ كانت الرؤية السائدة بين المسئولين فى واشنطن هى أن الولايات المتحدة لا تستطيع إعتبار فكرة المباحثات أو المفاوضات، إلا بعد

استخدام مزيد من الضغوط العسكرية على العدو.» وفيما بعد، وصف مسئول سابق من البيت الأبيض التيار الذى ساد تلك الفترة، قائلاً: «إنه مجرد كلمة (مفاوضات) صارت محرمة فى الإدارة». أما «روستو» و «تايلور» وغيرهم، فقد كان رأيهم أنه لابد من إصلاح التوازن العسكرى قبل التفكير فى المفاوضات، والذى كان معناه الحقيقى أنهم كانوا يسعون إلى الانتصار ويتوقعونه. لقد وصف «روستو» السياسة قائلاً: «يجب علينا أن نضع حداً لحروب التحرير؛ فلتكن هنا فى هذه البقعة على النمط الصينى، وإذا لم نسحقها هنا سوف يتعين علينا مواجهتها مرة ثانية فى تايلاند، أو فنزويلا أو غيرها. إن فيتنام أرض خالية صالحة لاختبار سياستنا فى العالم».

بعد أن رفض «جونسون» المفاوضات، أصبحت مشكلته العويصة هى كيف ينتصر فى الحرب دون إرسال قوات برية أمريكية إلى المعركة، ولقد أجابت القوات الجوية على ذلك السؤال. رغم فشل القوات الجوية فى قصف خط تموين العدو فى كوريا الشمالية، إلا أن ذلك لم يثبط همتهم؛ إذ أبلغ مؤيدو استراتيجية القوة الجوية الرئيس أنه يمكنهم إيقاف عدوان هانوى خلال شهر. وعندئذ وجه أحد المساعدين من المدنيين سؤالاً إلى الجنرالات: وماذا يحدث إذا لم تنسحب هانوى فى شهر؟ فكانت الإجابة أن أسبوعين آخرين سيؤديان المهمة. وبتحديد أكثر، كان «ماكنمارا» وزير الدفاع من مؤيدى نقل الحرب الجوية إلى فيتنام الشمالية، لثقته بأنها سترفع من معنويات القوات فى فيتنام الجنوبية، وتؤدى إلى انخفاض تدفق وزيادة تكلفة تسلل الرجال والمعدات من شمال فيتنام إلى جنوبها، بالإضافة إلى آثارها السلبية على الحالة المعنوية فى فيتنام الشمالية. وكانت المحصلة النهائية هى: «التأثير على عزيمتهم بالدرجة التى تدفع هانوى إلى عرض تسوية مرضية». وكانت النقطة الثالثة توصف فى بعض الأحيان ـ بأنها «حرب التراجع»، وكان المقصود من ذلك أن «هوشى مينه» سيقرر ـ إن عاجلاً أو آجلاً ـ أن المكاسب المتوقعة لا تستحق الثمن الذى يدفعه، وعندها سوف ينسحب. كما كان للقصف بالقنابل أفضلية أخرى، وهى تلك النكهة التى تميزت بها السياسة الأمريكية السائدة: سوف تنتصر الولايات المتحدة

فى الحرب عن طريق إنفاق الأموال والمواد، المتوافرة لديها بغزارة، مع تجنب الخسائر فى الأرواح.

وفى نهاية ١٩٦٤، قرر «جونسون» أن يبدأ حملة قصف بالقنابل على ڤيتنام الشمالية، فأعدت القوات الجوية والبحرية الاستعدادات الضرورية. إلا أن قصف دولة لم تكن فى حالة حرب مع الولايات المتحدة، ولم تقترف أية أعمال عدوانية ضد الولايات المتحدة، ولم تكن النية موجودة لدى الولايات المتحدة لإعلان الحرب عليها، كان يمثل خطوة خطيرة. لذلك قرر جونسون أن يبذل محاولة أخيرة، ليتأكد من أن الحملة الجوية كانت ضرورية فعلاً لإنقاذ الموقف فى ڤيتنام الجنوبية؛ فأرسل فى أواخر يناير وفداً برئاسة «ماك جورج باندى» ـ مستشاره الخاص لشئون الأمن القومى، والذى كان محل ثقة كنيدى ـ إلى سايجون لاستكشاف حقيقة الأوضاع هناك.

فى ٧ فبراير ١٩٦٥، اخترقت قوات «الڤيت كونج» خطوط الدفاع المحيطة بالقاعدة الجوية الأمريكية فى «بليكو» بڤيتنام الجنوبية، ودكت ممر الطائرات وبعض الثكنات العسكرية الأمريكية بمدافع الهاون؛ مما تسبب فى قتل ثمانية جنود أمريكيين، و تدمير ست طائرات هليكوبتر وطائرة نقل. انتقل «باندى» إلى الموقع لمعاينة الخسائر، ووفقاً لما نقله أحد المسئولين بالبيت الأبيض فيما بعد: «رجل من البرج العاجى وجد نفسه فجأة فى مواجهة الذعر المروع لحقيقة الموقف؛ فطاش صواب ماك وحث على البدء فوراً فى هجوم انتقامى.» وانضم إلى «باندى» فى التوصية بالانتقام الفورى «ماكسويل تيلور» السفير الأمريكى فى ڤيتنام الجنوبية، والجنرال «ويليم مورلاند» القائد العسكرى الأمريكى. وفى خلال اثنتى عشرة ساعة، بدأت ما أطلق عليه غارة انتقامية، وبها بدأت أول خطوة جوهرية فى تصعيد الموقف الأمريكى.

أعد «باندى» فى طريق عودته إلى واشنطن، مذكرة حث فيها على وضع برنامج مطرد لقصف الشمال بالقنابل، ودافع عن ذلك بقوله إنه فى خلال ثلاثة شهور من بدء القصف، سوف تستسلم هانوى وتطلب السلم، وكان فى تقديره أن القصف بالقنابل هو الطريق الوحيد لتجنب القرار الكريه بإرسال قوات مقاتلة أمريكية. وفى واشنطن، استمرت المخططات لوضع برنامج لقصف الشمال بطريقة منتظمة.

وفى ٢ مارس ١٩٦٥، أصابت قاذفات القنابل الأمريكية مستودع ذخيرة فى فيتنام الشمالية، وميناءً يبعد عن المنطقة المنزوعة السلاح بخمسة وخمسين ميلاً شمالاً، وكانت تلك هى أولى الغارات التى شنت دون أى ذريعة استفزاز محدد من قبل فيتنام الشمالية، وسرعان ما تبعتها غارات أخرى. كان جونسون يختار الأهداف بنفسه فى اجتماعات الغذاء، التى كانت تعقد كل يوم ثلاثاء مع «ماكنمارا» و«راسك» و «روستو»، وبحضور ممثلين عن هيئة الأركان المشتركة، و «وكالة المخابرات الأمريكية» أحيانا. وقاموا بوضع قيود على أساس الاعتماد على قائمة من أربعة عناصر: (١) الفائدة العسكرية الناجمة عن ضرب الهدف المقترح، و (٢) المخاطر المعرضة لها الطائرات الأمريكية، و (٣) خطورة توسيع نطاق الحرب عن طريق إجبار دول أخرى على دخول المعركة، و (٤) خطورة التسبب فى إصابات مدنية كثيفة. كانت النقطة الثالثة أهمها على الإطلاق، لأن إقصاء روسيا عن الصراع الدائر كان ضرورياً. وحيث إن السفن السوفيتية كانت عادة ترسو فى ميناء «هايفونج»، فلم يقصف ذلك الميناء على الإطلاق.

وفى أثناء قصف الشمال بالقنابل، نشط الطيارون الأمريكيون ـ بطريقة عنيفة ـ فى فيتنام الجنوبية. ووفقا لما قاله «برنارد فول»، الحقيقة هى أن «السبب وراء تغير طبيعة حرب فيتنام لم يكن قرار قصف فيتنام الشمالية بالقنابل، ولم يكن قرار استخدام قوات برية أمريكية فى فيتنام الجنوبية، ولكن كان السبب هو قرار شن حرب

-جوية بلا حدود، داخل البلاد، تسببت فى تدمير المكان؛ فتحول إلى قطع صغيرة».
إن مجرد الحجم المحض للمجهودات الأمريكية يجعل ذهن الإنسان يجفل رعباً. وفى بادئ الأمر، أعلنت عناوين الصحف أن الولايات المتحدة أسقطت على ڤيتنام الصغيرة قنابل، فاقت ما أسقطته فى كل معارك المحيط الهادى فى الحرب العالمية الثانية. وبحلول ١٩٦٧، كانت القنابل الملقاة قد فاقت كل ما أُلقى فى المعارك الأوروبية، ثم فاقت كل ما أُلقى فى الحرب العالمية الثانية. وفى النهاية ـ بحلول عام ١٩٧٠ ـ كانت القنابل التى أُلقيت على ڤيتنام قد فاقت كل ما أُلقى على كل الأهداف فى تاريخ البشرية كله. لقد انهمرت قنابل النابالم على القرى، بينما أتت الأعشاب الضارة على الشجر فى الحقول، ولم يحدث أبداً من قبل أن شنت دولة حرباً تعتمد اعتماداً كلياً على إنتاجها الصناعى وتفوقها المادى.

ومع ذلك، فلم يأت كل هذا بنتيجة؛ إذ لم تنسحب هانوى ولم تنهار معنوياتها، كما استمر تسلل الرجال والعتاد (بل تزايد)، وظل «الڤيت كونج» يحاربون، وازداد الوضع السياسى فى سايجون سوءاً، لقد رفض جونسون التفاوض، وأعطى للقوات الجوية فرصتها، ولكن القوات الجوية فشلت. وكان لابد من اتخاذ قرارات جديدة.

بالرغم من الاعتداء بالقنابل، ظل احتمال التفاوض وارداً، فتعرض جونسون لضغوط رهيبة من حلفاء شمال الأطلنطى والدول المحايدة، لكى يجرى مباحثات مع هانوى. ووضع جونسون رده، فى خطاب ألقاه فى ٧ أبريل ١٩٦٥، بجامعة «جون هوبكنز»، حيث وعد بوضع برنامج ضخم للإصلاح الاقتصادى فى جنوب شرق آسيا، بمجرد إنهاء الصراع، أو بعبارة أخرى حلا شبيها بخطة «مارشال» لتلك المنطقة، ثم أدعى أنه سيذهب إلى أى مكان ليناقش إقرار السلام مع أى شخص. ولكن السيف الذى لوّح به الرئيس كان أكثر أهمية من غصن الزيتون الذى رفرف فى يده. لقد صرّح بأن الدرس الأساسى للقرن العشرين هو أنه «لايمكن أبداً إشباع

شهية العدوان»، وطالما ظل فى منصبه كرئيس للولايات المتحدة، فلن تكون هناك محاولات لاسترضاء ڤيتنام الجنوبية «لن ننهزم.. لن نكل.. لن ننسحب، لاعلانية ولا تحت ستار اتفاقية ليس لها معنى». وفى اليوم التالى، شنت قاذفات القنابل الأمريكية سلسلة عنيفة من الغارات الجوية على ڤيتنام الشمالية، كما بدأت قوات أمريكية إضافية، وصل عددها الى خمسة عشر ألف جندى، فى الاتجاه صوب ڤيتنام الجنوبية.

استمرت القوات الجوية فى ضرب ڤيتنام الشمالية ـ دون إحراز نجاح ـ وبعد مرور شهرين أعلن جونسون ـ فى ٨ يونيه ١٩٦٥ ـ أنه قد صرح للقوات الأمريكية، التى كانت مهمتها مقصورة على الدوريات فقط، باستقصاء العدو والاشتراك فى القتال. وبعد مرور ثلاثة أيام، سقطت آخر حكومة مدنية فى سايجون، وتولى رئاسة الحكومة «نوجيون كاو كى»، الذى كان فى منصب نائب مشير القوات الجوية، والذى اشترك مع الفرنسيين فى قتال «الڤيت مينه». وسرعان ما أعلن «كى» أن «تأييد سياسة الحياد» ستكون عقوبته الاعدام من الآن فصاعداً. ومع ذلك، وبالرغم من تشدد واشنطن وسايجون، فلم يكن مسار الحرب فى صالحه، لقد نجحت قوات «الڤيت كونج» فى تدمير خطوط السكة الحديدية فى ڤيتنام الجنوبية، وازدادت أعمال الإرهاب فى المدن، واستمر وقوع مزيد من الأراضى فى أيدى الشيوعيين. وفى نفس الوقت، حاولت هانوى ـ التى كانت منكبة على زيادة قوتها ـ بدء المباحثات مرة أخرى، وذلك بأن حددت بوضوح أن الموافقة من حيث المبدأ على الانسحاب الأمريكى، وليس الانسحاب فى حد ذاته، كفيلة بالبدء فى المفاوضات.

فى خطاب مهم، ألقاه جونسون فى ٢٨ يوليو، كرر نفس الادعاء المعتاد المتعذر تفنيده «لم تكن هناك أية استجابة من الجانب الآخر» للبحث الأمريكى عن السلام. ولذلك كان مكرهاً على إرسال ٥٠,٠٠٠ جندى إلى ڤيتنام الجنوبية، وبذا وصل

إجمالى عدد القوات المشتركة فى الحرب إلى ١٢٥,٠٠٠ جندى. وكان جلياً أن القوات الأمريكية ستشترك فعلياً فى معارك برية، لقد قررت الولايات المتحدة أن تفوز فى ڤيتنام عن طريق سحق العدو. وكان جونسون قد أعلن بالفعل فى ١٠ يولية، أنه لن تكون هناك حدود لعدد القوات التى سترسل إلى الجنرال «وست مورلاند».

منذ عهد «ماك آرثر» حذر كل ضابط عسكرى أمريكى مسئول، أتيحت له فرصة التعليق على ذلك الموضوع، من اشتراك الولايات المتحدة فى حرب برية فى آسيا، ومع ذلك كانت الأمة فى ذلك الوقت مشتركة فيها تماماً. ومرة تلو أخرى أعلن جونسون ـ خلال حملته الانتخابية فى ١٩٦٤ ـ إنه لا يعتزم إرسال الشباب الأمريكى للموت فى ڤيتنام الجنوبية، لكى يقوموا بما يجب على شباب آسيا أن يضطلع به بنفسه، ومع ذلك كان الشباب الأمريكى يلاقى حتفه هناك آنذاك. وكررت وزارة الخارجية مراراً وتكراراً أن الولايات المتحدة يجب ألا تسمح على الإطلاق للشيوعيين بأن يدعوا أنها كانت تقود حرب الرجل الأبيض ضد الآسيويين، ومع ذلك كان ذلك ما يحدث بالضبط فى تلك الآونة. إن كنيدى ومساعديه كثيراً ما رددوا أن قوات التمرد المضاد كانت ـ أساساً ـ ذات مهمة سياسية، وأنه لا يمكن الفوز فى حرب العصابات، دون رد فعل سياسى ملائم، ومع ذلك فإن ٩٠٪ أوأكثر من المعدات التى كانت ترسلها الولايات المتحدة إلى ڤيتنام الجنوبية كانت معدات عسكرية، كما أن قوات الولايات المتحدة كانت القوة الوحيدة التى حالت بين الدكتاتورية والانهيار التام.

لماذا لم يهتم الأمريكيون بالتحذيرات التى أصدروها بأنفسهم؟ لأنهم كانوا مزهوين ومغرورين ومفرطين فى ثقتهم بأنفسهم، ومتأكدين أنهم يستطيعون تحقيق النصر بثمن محتمل، وصدّ فى نفس الوقت تيار الشيوعية فى آسيا. باختصار لقد توقعوا أن ينجزوا فى ڤيتنام، ما نجح جونسون فى تحقيقه فى جمهورية الدومينيكان.

من سنة ١٩١٦ حتى سنة ١٩٤٠ كانت البحرية الأمريكية مسيطرة على جمهورية الدومينيكان، حيث كانت للمؤسسات الأمريكية استثمارات ضخمة فى المزارع، التى كانت تصدر الفواكه والخضر الطازجة إلى الأسواق الأمريكية خلال الشتاء. ثم أنهى الرئيس إيزنهاور الوجود الأمريكى العلنى فى سنة ١٩٤٠، عندما فاز «رافائيل تروهيو» فى انتخابات رئاسة غير نزيهة، وأسس ديكتاتورية فعالة وقاسية، حتى أن «روزفلت» نعت «تروهيو» بأنه وغد. وفى مايو سنة ١٩٦١ اغتيل «تروجيللو».

بعد رحيل «تروهيو» رأى كنيدى أن أمامه ثلاثة احتمالات، فقام بترتيبها «ترتيباً تنازليا بادئاً بأفضلها» فكانت: «نظام حكم ديمقراطى لائق، أو استمرار نظام حكم «تروهيو»، أو نظام كاسترو. يجب أن يكون هدفنا الاحتمال الأول، ولكننا لن نتمكن من التخلى فعلياً عن الاحتمال الثانى، إلا عندما نتأكد أنه بإمكاننا تجنب الاحتمال الثالث». إن هذا التصور جسّد الطريقة التى كان كنيدى ـ والولايات المتحدة ـ تتعامل بها مع العالم الثالث، كان كنيدى يريد حكومة ديمقراطية، ولكن إذا كانت الحكومة التى قادت الثورة ذات انتماءات اشتراكية، أو كان هناك خطر من أن تصبح الدولة شيوعية، عندئذ سيقبل ديكتاتوراً، وليتعامل مع مشكلة الحريات فيما بعد. الشئ الذى يجُبّ كل شئ، هو عقد العزم على إقصاء السوفييت، والمحافظة على النفوذ الاقتصادى والسياسى الأمريكى.

لم يضطر كنيدى إلى الاختيار بين نظام «كاسترو» ونظام «تروهيو»؛ إذ أن شعب الدومينيكان ـ بعد سلسلة من الحكومات المؤقتة الانتقالية ـ قام فى ٢٠ ديسمبر ١٩٦٢ بانتخاب «جوان بوش» رئيساً له. وكان «بوش» يسارياً، وإن لم يكن شيوعياً، وكان كاتباً قضى سنوات فى المنفى بسبب عدائه «لتروهيو»، فبدا مثالاً للبديل الذى كان كنيدى يبحث عنه. ولكن «بوش» لم يتمتع بنفس قوة

العسكريين والمحافظين فى الدومينيكان ولذا، أطاح به العسكريون فى انقلاب، وقع بعد انتخابه بعشرة أشهر. استولى «دونالد ريد كابرال» على السلطة، ولكن رغم أنه كان عضواً فى حكومة الأقلية، فإنه لم يستطع أن يحصل على تأييد كافٍ من العسكريين، ولم يكن له أى مؤيدين تقريباً بين الشعب. فى أوائل أبريل سنة ١٩٦٥، كانت الجمهورية على حافة الانفجار مرة أخرى، رغم أن الولايات المتحدة قد أرسلت خمسة ملايين دولار إلى «ريد كابرال».

فى ٢٤ أبريل، شنت مجموعة من صغار ضباط الجيش الموالين لـ«بوش» انقلاباً، أطاح بـ «ريد كابرال»، ولكنهم عجزوا عن فرض النظام والأمن فى البلاد، فانطلقت جماهير الشعب الغاضبة فى شوارع «سانتو دومينجو»، وقامت مجموعة من العسكريين ـ وصفتهم واشنطن بأنهم «الموالين» ـ بانقلاب للاستيلاء على السلطة، ثم قام المتمردون بتسليح آلاف المدنيين وبدأ القتال. وفى ظل هذه الأحداث حذر السفير الأمريكى «تابلى بينيت» من احتمال سيطرة الشيوعيين على السلطة ـ فجأة ـ نتيجة للحرب الأهلية.

وعلى الفور، قرر جونسون أن التمرد كان جزءاً من مؤامرة أكبر حجماً، مع احتمال أن يكون «كاسترو» هو العقل المدبر لها، وأن تحدى المصالح الأمريكية فى جمهورية الدومينيكان كان تحدياً للمصالح الأمريكية فى كل أنحاء أمريكا اللاتينية، ولذلك قرر أن يتدخل. وفى ٢٨ أبريل أرسل جونسون البحرية الأمريكية، على أن تطير بعدها فرقة الجيش الثانية والثمانون، وكان تفكيره ينصب مبدئياً على حماية أرواح المواطنين الأمريكيين فى «سانتو دومينجو». ولكن فى ٣٠ أبريل، أعلن سبباً مختلفاً تماماً: «إن الجماعات التى تدربت خارج جمهورية الدومينيكان تسعى للاستيلاء على السلطة». «وقامت السفارة الأمريكية فى «سانتو دومينجو» بإصدار قائمة، تتضمن ثمانية وخمسين من «الزعماء المعروفين، والبارزين من الشيوعيين، والموالين

لكاسترو» الموجودين فى القوات المتمردة. وكان واضحاً ـ بل حتى بطريقة مشينة ـ أن تلك القائمة كانت مزورة؛ إذ كان مصدرها قائمة أعدها «تروهيو» نفسه منذ عدة سنوات سابقة. لقد حاز تقييم «بوش» للموقف على قبول جبهة عريضة: «كانت هذه ثورة ديمقراطية قامت بقمعها زعيمة الديمقراطية فى العالم».

لقد تصرف جونسون بمفرده، ويرجع ذلك، جزئياً، إلى عامل السرعة وإلى رأيه فى شركائه فى «منظمة التحالف من أجل التقدم»، ولقد علّـق على ذلك؛ قائلاً «إن منظمة الدول الأمريكية - OAS - لا تستطيع أن تنظف حذاءً مما علق به، حتى وإن كانت التعليمات مكتوبة على كعب الحذاء». بعد أن تمكنت البحرية الأمريكية من إعادة النظام والأمن، ومن منع «بوش» من تولى السلطة، كان من الضرورى مواجهة منظمة الدول الأمريكية، واستطاع جونسون أن يقنع دول أمريكا اللاتينية بأن تنضم إليه فى جمهورية الدومينيكان. وفى ٢٨ مايو قامت «قوة منظمة الدول الأمريكية لحفظ السلام» بتعزيز القوات الأمريكية ثم تسلمت منها مقاليد الأمور. واستمر البحث عن جهة معتدلة فى الحكومة، وفى آخر الأمر تكونت حكومة فى سبتمبر، وفى يونيه ١٩٦٦ فاز «جوكين بالاجار» اليمينى المعتدل على «بوش» فى انتخابات الرئاسة.

لقد فاز جونسون. كان تدخلاً محدوداً من حيث الوقت وعدد القوات المشتركة والتكلفة، والخسائر فى الأرواح. لقد نجحت البحرية وجنود المظلات الأمريكية فى الحيلولة، دون ظهور «كاسترو» آخر أو «تروچيللو» آخر فى جمهورية الدومينيكان، كما احتفظت المؤسسات الأمريكية بمزارعها، وأمكن تهدئة منظمة الولايات الأمريكية.

عندما كانت الأزمة فى أوجها، قام النقاد من الليبراليين بإمطار جونسون بوابل من الأسئلة، وجاء فى المقالة الافتتاحية للنيويورك تايمز: «يبدو أن الولايات المتحدة لم تكن مدركة تماماً أن شعب الدومينيكان ـ وليس مجرد حفنة من الشيوعيين ـ كان

يقاتل ويضحى بحياته دفاعاً عن العدالة الاجتماعية، والتمسك بالمبادىء الدستورية». وقد اعترض روبرت كنيدى؛ لأن جونسون توانى عن إخطار منظمة الدول الأمريكية قبل أن يتصرف، ولكن جونسون تجاهل النقاد، واستطاع نجاحه ـ فى نهاية الأمر ـ أن يبرر تصرفه. ربما استنتج أنه يمكن أن يفعل نفس الشئ فى ڤيتنام، وأن النجاح هناك أيضاً سوف يصمت النقاد.

فى نفس الوقت، واجه «جونسون» مشاكل فى الشرق الأوسط، نشأت نتيجة حدة الحركات القومية فى المنطقة، واستحواذها على نصيب الأسد من احتياطى البترول العالمى. وفى الستينيات تمكنت الدول العربية ـ واحدة تلو الأخرى ـ من وضع يدها على بترولها الذى كان البريطانيون يمتلكونه قبل الحرب العالمية الثانية. أثناء وبعد الحرب العالمية الثانية، قامت شركات البترول الأمريكية بإجبار البريطانيين على مشاركتهم فى الغنائم. ولكن الحكومات العربية التى تأسست عقب الحرب، ومعها إيران، بدأت تطالب بالمزيد، مقابل الثروة الطبيعية الثمينة المحدودة والوحيدة التى يمتلكونها. كان «مصدق» رئيس وزراء إيران، أول من حاول تأميم كل حقول البترول (١٩٥١)، وأطاحت به وكالة المخابرات المركزية فى ١٩٥٣. وفى ١٩٥٩، كونت بعض الدول المنتجة للبترول ـ فنزويلا وإيران والسعودية والكويت والعراق ـ معاً منظمة الدول المصدرة للبترول، «الأوبك»، كان الغرض منها هو وقف أى هبوط مفاجئ فى المستوى العالمى لأسعار البترول الخام. وكانت الولايات المتحدة ما زالت من الدول المصدرة للبترول. فى ١٩٥٩ كان هناك فائض من الإنتاج غمر الأسواق، لدرجة أن رفع أسعار البترول إلى المستويات التى كانت عليها قبل ١٩٥٩ استغرق عشر سنوات. وفى نفس الوقت كانت كل دولة منتجة للبترول، قد أممت حقولها سواء بالاتفاق مع شركات البترول البريطانية والأمريكية، أو ببساطة عن طريق ممارسة سلطات السيادة.

وعلى حين أخذت الدول العربية الأخرى تزداد ثراءً، عجز عبد الناصر عن تحقيق أية معجزات فى مصر، وذلك بالرغم من تعهداته بالاشتراكية والوحدة العربية،

التى لم يحقق أياً منها فعلاً؛ حيث ظل الشعب المصرى يتمرغ فى أسوأ مظاهر الفقر فى العالم كله تقريباً، بالرغم من المساعدات السوفيتية. لقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة فى التداعى بحلول ١٩٦٧، وكان عبد الناصر فى أمس الحاجة إلى نصر كبير ومثير ليساعده على استعادة وضعه. وكانت أمامه الفرصة، فقد عكف السوفييت منذ حرب ١٩٥٦ على تزويد مصر وسوريا والعراق بالأسلحة المتقدمة، مع اتباع سياسة صارمة فى معاداة إسرائيل. وكان عدد العرب يفوق الإسرائيليين، بدرجة كبيرة، كما أن تسليحهم أصبح أفضل. وبحلول ١٩٦٧ كان السوفييت يشجعون العرب على مهاجمة إسرائيل ـ رغم أنهم أكدوا بوضوح أنهم لن يساندوا العرب علانية ـ وبالتالى كان على العرب ألا يتوقعوا أية مساعدات إذا فشلت مغامرتهم العسكرية. ومع ذلك، فى ظل وجود آلاف الفنيين الروسيين وعائلاتهم فى مصر ـ حيث كانوا يعملون فى السد العالى بأسوان، أو مع العسكريين المصريين ـ افترض عبد الناصر أن روسيا لابد وأن تدعمه.

فى مايو ١٩٦٧، طالب عبد الناصر ـ بتحريض من السوفييت والمتطرفين من العرب ـ بسحب قوة الطوارئ التابعة للأمم المتحدة، التى وقفت بين المصريين والإسرائيليين منذ ١٩٥٦. وأوضح «يوثانت» ـ السكرتير العام للأمم المتحدة ـ أنه لايستطيع أن يبقى على قوات الأمم المتحدة، فى مكان تعترض عليه الحكومة المضيفة، ومن ثم أمر فوراً بسحب قوة الطوارئ من سيناء. ويبدو أن ذلك أثار دهشة كل من عبد الناصر والسوفييت، وغيرت روسيا موقفها، وأخذت تحث عبد الناصر على التريث، لأنهم كانوا يخشون اندلاع حرب لايمكنهم السيطرة عليها، وقد تؤدى إلى مواجهة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى. ولكن عبد الناصر لم يستطع أن يتراجع عند تلك النقطة الحاسمة، لقد سيطرت القوات المصرية على شرم الشيخ المطلة على مضيق تيران، وبذا حالت دون مرور إسرائيل إلى خليج العقبة، وبالتالى إلى ميناء إيلات.

كانت الولايات المتحدة مستغرقة فى حرب ڤيتنام فى ذلك الوقت، كما زاد اعتمادها على بترول العرب، والأهم من ذلك كله، كانت متلهفة على الحيلولة دون اندلاع حرب أخرى ـ خاصة فى الشرق الأوسط ـ مع احتمال حدوث تداعيات هائلة، كان من الأفضل عدم التفكير فيها. ولكن لم يكن فى مقدورها أن تتخلى عن إسرائيل ـ بهذه البساطة ـ لعبد الناصر والسوڤييت، وحاول الرئيس جونسون أن ينظم محاولات دولية للتغلب على الحصار المصرى، ولكن دول أوروبا الغربية رفضت أن تتعاون معه، خشية فرض حظر على بترول العرب. وهنا أصبحت إسرائيل واثقة أن الجهود الأمريكية كانت فاترة، وتعوزها الحماسة، فقررت أن تتولى زمام الأمور بنفسها، قبل أن تختنق ببطء.

فى تلك الفترة الحاسمة، قدم الجنرال «ديجول» نصيحة حصيفة لـ«أبا إيبان» ـ وزير خارجية إسرائيل ـ فقال له: «لا تشن حرباً.. سوف ينظر إليك العالم ـ وأنا أيضاً ـ على أنك المعتدى. سوف تتسبب فى أن يتوغل الاتحاد السوڤيتى فى أعماق الشرق الأوسط أكثر من الآن، مما سيكون له عواقب وخيمة على إسرائيل. وستخلق قومية فلسطينية، ولن يمكنك أن تتخلص منها إلى الأبد». وقد ثبت صدق نبوءة «ديجول» الأخيرة بصفة خاصة. وفى نفس الوقت كانت روسيا تطلب من مصر ألا تبدأ بالضربة الأولى، وهو نفس ما كانت تطلبه الولايات المتحدة من إسرائيل.

لكن فى صباح ٥ يونيه ١٩٦٧ بدأت القوات الجوية الإسرائيلية بالهجوم، لقد حلقت طائراتها فوق البحر الأبيض المتوسط بدلاً من فوق سيناء، بحيث تجنبت الرادار المصرى، وبالتالى حققت مفاجأة تكتيكية من الدرجة الأولى. لقد دمرت معظم الطائرات المصرية وتركت مطاراتها غير صالحة للعمل، ثم استدارت وكررت نفس العملية ضد القوات الجوية الأردنية والسورية والعراقية. لقد كان استعراضاً باهراً لتفوق الطيران الإسرائيلى، حقق لهم السيطرة على الجو؛ فلجأ عبد الناصر إلى إغراق السفن لكى يسد قناة السويس. وفى صباح ذلك اليوم؛ قام «إليكسى كوسيچين»

رئيس الوزراء السوفيتى بالاتصال بالرئيس جونسون على الخط الساخن، وأبلغه أن الاتحاد السوفيتى لن يتدخل إلا إذا تدخلت الولايات المتحدة. فى ذلك الوقت، كانت الدبابات وكتائب المشاه الإسرائيلية قد بدأت تقدمها بالفعل داخل صحراء سيناء واستولت على مرتفعات الجولان، واحتلت الضفة الغربية والقدس. ولذلك قام «جونسون» بإبلاغ «كوسيچين» أن الولايات المتحدة على استعداد لطلب وقف إطلاق النار، وهو ما طالب به مجلس الأمن فى اليوم التالى، ٦ يونيه. وفى نفس الوقت، أمر «جونسون» الأسطول السادس الأمريكى، القابع فى البحر المتوسط بأن يتخذ حالة الاستعداد القصوى، كما أرسل حاملتان للطائرات للاتجاه إلى مصر.

وهكذا منح «جونسون»، دون عمد، عذراً مثالياً لعبد الناصر ليبرر به الأداء المؤسف للقوات الجوية المصرية. رغم أن السوفييت كانوا قد وضعوا الأسطول الأمريكى تحت رقابة محكمة، وبالتالى علموا ـ بما لا يدعو للشك ـ أنه لم تنطلق منه أية طائرات مقاتلة يومى ٥ أو ٦ يونيه، إلا أن «عبد الناصر» ادعى زوراً أن طائرات أمريكية من الأسطول السادس، بالإضافة إلى طائرات بريطانية من قبرص قد اشتركت فى مجموعة الهجمات الأولية. ولقد آمن بصدق هذا الإدعاء، عدد كبير من الدول العربية. ولذلك فإنه بحلول صباح ٧ يونيه، كانت مصر والجزائر والعراق والسودان وسورية واليمن قد قطعوا علاقاتهم الدبلوماسية بالولايات المتحدة وبريطانيا. ولكن عبد الناصر لم يستطع أن يجذب الدول العربية المعتدلة إلى صفه، ولذلك بقيت العلاقات بين الولايات المتحدة، والأردن، وليبيا، والمغرب، والكويت، وتونس، والسعودية. ثم أعلن وزراء البترول العرب فرض حظر على شحنات البترول إلى مساندى إسرائيل؛ خاصة بريطانيا والولايات المتحدة، ولكن ذلك كان ذا تأثير ضعيف.

كانت إسرائيل قدحققت نصراً مذهلاً؛ وعندما قبلت وقف إطلاق النار فى ١٠ يونيه (وبذا أطلق على الصراع اسم حرب الأيام الستة) كانت قد استولت من مصر على كل شبه جزيرة سيناء وقطاع غزة، وتوغلت داخل سورية بعمق ١٢ ميلاً، واستولت على مرتفعات الجولان؛ وكل القدس والضفة الغربية لنهر الأردن.

كانت نتائج حرب الأيام الستة كئيبة مقبضة بالنسبة لكل من روسيا والولايات المتحدة؛ فالأسلحة الفرنسية دمرت الأسلحة الروسية (طائرات الميراج الفرنسية كانت عماد القوات الجوية الإسرائيلية)، كما أن الحشد الضخم للدبابات الروسية فى العالم العربى لم يسفر عن شئ، والواقع أن الدبابات التى لم تدمر أصبحت جزءاً من غنائم الحرب، التى استولت عليها إسرائيل. وكان العرب ـ بصفة عامة ـ فى ثورة من الغضب، لأن روسيا لم تساعدهم بطريقة أكثر فعالية فى وقت شدتهم، ان الولايات المتحدة حاولت أن تمنع الحرب وفشلت. والآن أغلقت قناة السويس، وفرض العرب حظراً على البترول، ورسخت أقدام الاتحاد السوفيتى فى الشرق الأوسط، أكثر من أى وقت مضى، لأن العرب أصبحوا معتمدين على روسيا، أكثر مما سبق (لإعادة بناء قواتهم المسلحة، رغم شدة كراهيتهم لذلك الوضع)، وقطع نصف الدول العربية علاقته الدبلوماسية مع الولايات المتحدة.

أسوأ ما فى الأمر، أن إسرائيل احتلت الآن أرضاً كانت عربية بلا منازع(*) (ظلت سيناء جزءاً لا يتجزأ من مصر، لأكثر من خمسة آلاف سنة). وتطورت مشكلة اللاجئين الفلسطينيين من مجرد التهاب إلى ورم خبيث، فقد كان هناك عشرات الآلاف من اللاجئين الجدد، الذين تدفقوا على الأردن، ولبنان، ومصر، وسوريا، وآلاف أخرى من الفلسطينيين أصبحوا يعيشون تحت الاحتلال الإسرائيلى المسلح. وكانت النتيجة المباشرة الفورية هى توسع انتشار منطقة التحرير الفلسطينية، وزيادة هائلة فى نطاق وكم الأعمال الإرهابية التى قام بها الفلسطينيون التعساء. لقد فازت إسرائيل ولكنها فى سبيل ذلك ضاعفت مشاكلها بشكل مريع، وأجلت ـ إلى أجل غير مسمى ـ اليوم الذى يمكنها فيه أن تتعايش فى سلام مع جيرانها العرب. وبالرغم من ذلك، كان الإسرائيليون مؤمنين بأن الأرض تعنى الأمن، ولذا رفضوا أن ينسحبوا إلى حدود ٤ يونيه ١٩٦٧.

(*) قبل ١٩٦٧، احتلت اسرائيل أرضاً كانت، فى وقت من الأوقات، جزءاً من فلسطين ـ الواقعة تحت الانتداب البريطانى.

فى تلك الأثناء، أعلنت فرنسا ـ رضوخاً لمطالب الدول العربية البترولية ـ أنها فرضت حظراً على كل مبيعات الأسلحة إلى الشرق الأوسط؛ بل إن «ديجول» منع تسليم ٥٠ طائرة ميراج إلى إسرائيل، كانت قد سبق طلبها وسداد ثمنها بالفعل. أما روسيا فأسرعت بإرسال طائرات إلى سوريا ومصر. وفى ظل تلك الظروف كان جونسون يواجه ضغوطاً حادة، وكانت تلك هى المرة الأولى التى وجد فيها رئيس أمريكى أن عليه أن يختار بين إمداد إسرائيل بأسلحة على نطاق واسع*، وبين التعرض للعواقب السياسية الداخلية، التى قد تنتج عن خسارة إسرائيل لتفوقها العسكرى. وقرر جونسون أنه يجب أن يؤيد اسرائيل، وأصبحت الولايات المتحدة المصدر الرئيسى لأسلحتها المتقدمة، حيث تم عقد صفقة فى ١٩٦٨ تم بمقتضاها بيع خمسين طائرة فانتوم ٤٥ لإسرائيل (طائرة محاربة ـ قاذفة للقنابل، أسرع من الصوت).

أما العرب الذين كانت هزيمتهم شنعاء فقد بدأوا يتقهقرون ببطء. وفى يوليو ١٩٦٧، رفضوا مشروع قرار أعدته الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ليعرض على الجمعية العامة للأمم المتحدة. وطالب القرار بانسحاب إسرائيل من كل الأراضى التى احتلتها بعد ٤ يونيه، وحث كل الأطراف على الاعتراف بحق كل منها فى الاحتفاظ (فى أمن وسلام) بدولة قومية مستقلة، لقد رفض العرب الاعتراف بوجود إسرائيل كدولة لها سيادة، ولكنهم تخلوا ضمنيا عن المطالبة بالقضاء على الصهيونية، وعاهدوا أنفسهم على حل المشكلة بالجهود الدبلوماسية. وفى أغسطس رفعوا الحظر عن شحنات البترول الى الولايات المتحدة وبريطانيا، وفى أكتوبر قامت القاذفات المصرية بإغراق مدمرة إسرائيلية، وقامت إسرائيل بتدمير اثنين من أهم معامل تكرير البترول المصرية. وعند ذلك الحد كان كلا الجانبين قد عانى بما فيه الكفاية، وطلبا تدخل مجلس الأمن، ليفرض وقف إطلاق نار حقيقياً.

(*) قامت الولايات المتحدة ببيع صواريخ أرض ـ جو مضادة للطائرات لإسرائيل فى ١٩٦٢، ودبابات باتون فى ١٩٦٥، وسكاى هوك ا ـ ٤ فى ١٩٦٦.

كانت النتيجة هى قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ الشهير، الذى تولى صياغته اللورد «كارادون» من بريطانيا العظمى، وتمت الموافقة عليه فى ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧. وكان القرار ٢٤٢ وثيقة منصفة، حاولت أن توفق بين المصالح الحيوية للأطراف المتنازعة. فبالنسبة لإسرائيل تعهد القرار بالسلام الموعود مع جيرانها، وحدود آمنة معترف بها، وحرية الملاحة فى المياه الإقليمية. وبالنسبة للعرب تعهد القرار بجلاء اليهود عن الأراضى المحتلة، وإيجاد وطن قومى للفلسطينيين. ووافق العرب وإسرائيل على القرار ٢٤٢، ولكن كان مفهوم إسرائيل أن توقيع معاهدات سلام حاسمة ومضمونة، يجب أن يسبق أى انسحاب، بينما أصر العرب على أن قرار ٢٤٢ كان معناه أن الانسحاب التام لإسرائيل، يجب أن يسبق أى تحرك سياسى.

وهكذا.. أصبحت أهم نتيجتين لحرب الأيام الستة، ـ التى فسرها أغلب الأمريكيين والاسرائيليين على أنها نصر كبير لإسرائيل ـ هما: الاحتلال الإسرائيلى لأراضى العرب، وخلق قومية فلسطينية فائرة ومتعصبة. ولن يهدأ العرب حتى يستردوا أراضيهم، ولن يهدأ الفلسطينيون حتى يحصلوا على دولة قومية خاصة بهم.

كانت هناك نتيجة ثالثة للحرب، وهى الغرور العسكرى الذى سمح للإسرائيليين بأن يشعروا أنه يمكنهم تجاهل تلك المخاطر، دون التعرض للخطر. وبدأوا يفكرون فى أنفسهم على أنهم الشعب الذى لا يقهر، وشاركهم فى ذلك مراقبون آخرون منهم وكالة المخابرات المركزية الأمريكية، وزادت قوة تلك الانطباعات، عندما بدأ نيكسون فى ١٩٧٠م فى بيع أسلحة لإسرائيل على نطاق لم يسبق له مثيل على الإطلاق. والنتيجة الرابعة للحرب كانت دفع أكثر الدول العربية اعتدالاً إلى الكتلة المعادية لإسرائيل، بمنتهى القوة؛ بسبب الأراضى المحتلة ومشكلة فلسطين، وبسبب استحواذ إسرائيل على المدينة القديمة للقدس، التى يعتبرها المسلمون مدينة مقدسة، مثلهم مثل اليهود والمسيحيين. واتفق أغلب العرب على أن إسرائيل، يمكنها أن تحصل على السلام أو الأرض، ولكن لن يمكنها أن تستمتع بالاثنين معاً.

لكن، كانت فيتنام هى مصدر الألم المبرح الذى عانى منه ليندون جونسون، وفى واقع الأمر الألم المبرح الذى عانت منه أمة بأكملها. ومنذ ١٩٦٥ وفيما بعدها، أثارت فيتنام التساؤلات القديمة، الخاصة بمركز الولايات المتحدة فى العالم، وهى تساؤلات كانت قد رقدت فى سبات، منذ الفترة التى أثارها السيناتور «تافت» ـ لأول مرة ـ رداً على مبدأ ترومان. لقد استدعيت الولايات المتحدة لسداد قيمة بوليصة تأمين، حررت فى سنة ١٩٤٧، لصالح أوروبا، وامتدت خلال سنوات ١٩٥٠ ـ ١٩٥٤ لصالح آسيا، وثبت أن الثمن فاق المتوقع بكثير جداً. فى نهاية الأمر، بدأ التراجع فى الالتزام بسياسة الاحتواء الذى كان سائداً فى كل الولايات المتحدة تقريباً. وانطلق أعضاء مجلس الشيوخ والمفكرون ورجال الأعمال، وملايين المواطنين فى شن هجوم خطير على بعض الأركان الأساسية للسياسة الخارجية الأمريكية خلال الحرب الباردة؛ خاصة فيما يتصل بتعريف المصالح الحيوية الأمريكية، ونظرية «الدومينو». وكان الاتجاه السائد هو اعتبار المصالح الحيوية الأمريكية على أنها أى منطقة كان للولايات المتحدة فيها نفوذ سياسى أو اقتصادى أو عسكرى، وهو ما كان معناه أن المصالح الحيوية الأمريكية دائماً تتحرك للخارج، وهو اتجاه لم يلق كثير من الاعتراضات الخطيرة، حتى فيتنام. وبحلول ١٩٦٨ وجدت وزارة الخارجية ـ لأول مرة من أواخر الأربعينيات ـ أن عليها أن تدافع عن تعريفها للمصالح الحيوية.

فى فيتنام، أجبر الشعب الأمريكى على مواجهة ثمن سياسة الاحتواء. وفى سنة ١٩٦٥، كان معظم الأمريكيين متفقين على أنه كان من الضرورى تطويق الصين وروسيا عسكرياً، وعلى أن الولايات المتحدة كانت لها مصالح حيوية فى أوروبا الغربية، واليابان، وأمريكا اللاتينية، ومناطق معينة فى الشرق الأوسط، وأن على الولايات المتحدة أن تفعل ما تراه ضرورياً لمنع خضوع أى من هذه المناطق للسيطرة الشيوعية، وأن حماية هذه المناطق تتطلب الدفاع عن المناطق المحيطة بها. وكان هذا

هو التصعيد الحقيقى، تصعيد ما اعتبرته الولايات المتحدة مصالحها الحيوية. كما كان من المفترض أن الاحتياجات الأمريكية كانت تتضمن الاستقرار والنظام فى كافة أنحاء العالم، والذى كان يعنى ـ فعلياً ـ المحافظة على الوضع الراهن. كانت هذه هى الأهداف العامة العريضة لكل رؤساء الحرب الباردة، وكان ترومان وإيزنهاور وكنيدى على استعداد للمجازفة بدفع الثمن المطلوب للمحافظة على تلك الأهداف، وإن كان ذلك بدرجات متفاوتة، وكان سوء حظ جونسون هو الذى أوقعه فى ڤيتنام.

وفى الحقيقة، اختلف التدخل فى ڤيتنام عن التدخل فى جمهورية الدومينيكان من حيث التكلفة فحسب. ومن وجهة نظر جونسون لم يكن التدخل فى ڤيتنام هو إساءة تطبيق لسياسة سليمة، وإنما كانت إحدى النتائج المحتملة والواردة ضمنياً دائماً فى سياسة الاحتواء، وكان الرئيس يؤكد دائما على أنه كان ـ فقط ـ يسير على خطى ترومان وإيزنهاور وكنيدى، ولم ير أبداً أى سبب منطقى لمناقشة الافتراضات الأساسية.

لكن آخرون رأوا غير ذلك. لقد أخذ الالتزام الأمريكى يتزايد من عشر بلايين دولار، إلى عشرين بليون دولار، إلى ثلاثين بليون دولار سنوياً، ومن ١٥٠,٠٠٠ إلى ٣٠٠,٠٠٠ إلى ٥٠٠,٠٠٠ رجل وأكثر. ومع زيادة الخسائر فى الأرواح، واستمرار سيل القنابل على النساء والأطفال فى شمال وجنوب ڤيتنام بدأ نقاد جونسون يتساءلون، ليس فقط عن ڤيتنام، وإنما كذلك عن سياسة الاحتواء ذاتها. وأصبحت تلك التساؤلات أكثر قوة بسبب حالات الشغب التى انتشرت فى المدن الأمريكية، وتلوث الهواء والماء واستمرار العنصرية، وتمرد الشباب على التجنيد. إن طلبة الجامعات ـ فى الخمسينيات ـ لم يناقشوا سياسة الاحتواء لأسباب عديدة. ولكن من الأرجح أن أهمها كان أن هذه السياسة ـ بعد حرب كوريا ـ لم تتضمن ذبح آلاف المدنيين، وموت آلاف الشباب الأمريكى، وتبديد بلايين الدولارات. فى نهاية الستينيات ـ ومع استمرار الحرب فى ڤيتنام بلا نهاية ـ بدأ الطلبة وغيرهم

يتساءلون، ليس فقط عن الحرب فى ڤيتنام، وإنما الأهم من ذلك نوعية المجتمع الذى يمكن أن يدعم مثل هذه الحرب. لقد أدى ذلك الى فحص كل أوجه الحياة الأمريكية؛ مما دفع الطلبة إلى الإيمان بأنهم يعيشون فى مجتمع شرير قمعى، يستغل الأجانب والأمريكيين على السواء.

ومع ذلك، لم يكن تمرد طلبة الجامعات ذا مغزى مباشر مثل التساؤلات الأعم، التى أثارها رجال أكبر سناً، كانت لهم مصالح فى المجتمع، وملتزمين بالمحافظة عليه. لقد توصل عديد منهم إلى أن سياسة الاحتواء، والتعبير عن تلك السياسة بالتحديد فى ڤيتنام، لم يكن ينقذ الولايات المتحدة بل أصبح يدمرها. فعادوا الى رؤية أقدم للولايات المتحدة، والتى كان أحسن من عبر عنها «لينكولن» فى «جيتسبورج»، الذى رأى أن مهمة الولايات المتحدة، هى: ضرب المثل الأعلى للعالم. لقد كتب «والتر ليبمان» قائلاً «يمكن لأمريكا أن تمارس أعظم نفوذها فى العالم الخارجى، بأن تثبت بأن أكبر وأكثر المجتمعات الحديثة تعقيداً، يمكن أن تحل المشاكل الحديثة. وعندئذ.. يمكن أن يرى العالم أن كل ما يتصارع عليه يمكن حله. إن القدوة ـ وليس التدخل وقوة السلاح ـ كانت الأداة التاريخية للنفوذ الأمريكى على البشرية، ولم يحدث أبداً من قبل، أن كان إدراك هذه الحقيقة ضرورياً وملحاً أكثر من الآن». وأضاف السيناتور «فولبرايت» قائلاً: «فى هذا العصر، عصر القومية والأسلحة النووية، لم يعد العالم بحاجة الى قوة استعمارية جديدة، ولكن هناك حاجة ماسة الى زعامة أخلاقية، وأعنى بذلك زعامة قدوة جديرة بالاحترام». ولكن بالنسبة لجونسون، كان من مصلحة الولايات المتحدة ومن واجبها أن تستخدم القوة العسكرية لوقف انتشار الشيوعية، سواء فى جمهورية الدومينيكان، أو فى ڤيتنام.

ووافق على ذلك مستشاروه لشؤن السياسة الخارجية، والمعينون من قبل كنيدى بلا استثناء؛ بزعامة وزير الخارجية «راسك»، الذى كانت حجته، التى ساقها علناً وسراً: أن الصين كان لهادور نشيط فى ترويج وتدعيم الحرب فى ڤيتنام، وهو ما كان

مشابهاً فى رأيه لاعتداء هتلر على أوروبا. وقدعبر «تاونسند هوبز» وكيل الوزارة للقوات الجوية عن اتجاه «راسك» قائلاً: «باستخدام تعبيراته المنتقاة دائماً والبليغة فى بعض الأحيان.. كانت آسيا تبدو كأنها أوروبا، والصين كانت إما روسيا الستالينية أو ألمانيا الهتلرية، وكان السيتو إما ناتو أو التحالف الأعظم للحرب العالمية الثانية». وكان جونسون يردد أفكار «راسك» لقد كتب «ڤيليب چيلين» قائلاً «إن جونسون ـ من وراء الكواليس ـ كان قادراً تماماً على إبلاغ أحد أعضاء مجلس الشيوخ المهتمين بالشئون الخارجية، أنه «إذا لم نوقف الجيش الأحمر فى ڤيتنام الجنوبية، سيكون غداً فى هاواى، وسيكون الأسبوع القادم فى سان فرانسيسكو».

كانت هناك صعوبة واضحة فى هذا المدخل، صعوبة متأصلة فى صلب سياسة الاحتواء. وإذا كان الخطر منتشراً بالقدر الذى أشار إليه «جونسون» و«راسك»، وإذا كانت المخاطرة تشمل الكون فعلاً، كما كانا يدعيان، إذن فما الجدوى من وراء قتال ذيل الأفعى مع عدم المساس برأسها؟ كان التبرير الوحيد المعقول لموت خمسين ألف جندى أمريكى، وضعف ذلك العدد عشرين مرة أو أكثر من الڤيناميين، هو الانتصار الذى كان معناه فصل رأس الأفعى فى بكين. ولكن لم يجرؤ أحد على المجازفة بمد الحرب إلى الصين أو حتى هانوى (باستثناء الجو)، لقد كانت هناك أوجه اختلاف بين حرب ڤيتنام وحرب كوريا، كان أهمها أن الإدارة الأمريكية لم تحاول أبداً أن تحرر ڤيتنام الشمالية. ومع ذلك، إذا لم تقم القوات الأمريكية باحتلال هانوى ذاتها، لكان باستطاعة ڤيتنام الشمالية «والڤيث كونج» أن يستمروا فى الحرب لفترة طويلة جداً. لقد عجز القصف بالقنابل عن إلحاق الضرر بالمصدر الذى كانوا يحصلون منه على المواد الاستراتيجية؛ حيث كان ذلك المصدر فى الصين، بل بدرجة أكبر فى روسيا، ولم يكن بإمكان القوات الجوية الأمريكية أن تقوم ـ جدياً ـ بتمزيق خطوط مواصلات تعتمد ـ إلى حد كبير ـ على القوافل وراكبى الدراجات، كما لم يكن بإمكان الولايات المتحدة أن تفرض رسوما غير مقبولة على

الطاقة البشرية أو الموارد المادية للعدو فى ميدان المعركة؛ فإن قوات «الڤيت كونج» كانت تنسحب إلى الغابات كلما أرادت أن تقلل من خسائرها، أو كانت تعبر الحدود إلى كامبوديا أو لاوس، كلما أرادت أن تتجنب مزيداً من المعارك.

لم يكن الانتصار فى الحرب ممكناً كما كان تدفق القوات الأمريكية المقاتلة يعنى عدم الهزيمة. لقد رفضت هانوى البدء فى المفاوضات، إلا بعد توقف القصف بالقنابل، وبعد أن تتعهد الولايات المتحدة بسحب قواتها، دون أن يتم ذلك على أساس إجراء انتخابات تحت إشراف حكومة سايجون. ورفضت الولايات المتحدة بدورها البدء فى المفاوضات إلا بعد أن «تتوقف هانوى عن العدوان»، وذلك بأن تسحب قواتها ودعمها المادى لقوات «الڤيت كونج»، كما رفضت أن تسحب قواتها، إلا بعد تأكدها من بقاء حكومة سايجون فى السلطة، حيث كان محور الحرب ـ أساساً ـ هو من يتولى الحكم فى سايجون. ونظراً لأن كلا الجانبين رفض أن يستسلم؛ فقد كانت الولايات المتحدة ملتزمة بالاستمرار بالحرب فى الشرق.

وفى نفس الوقت، انقلب الليبراليون (من أنصار سياسة كنيدى) على «جونسون»، ولو أن استياءهم من أسلوبه كان بنفس قدر اعتراضهم على سياسته. وبدأ المحبون للسلام «الحمائم» فى مجلس الشيوخ ـ فى عقد اجتماعات متكررة للتذمر من الرئيس وكانت تلك الاجتماعات ـ مثل ما كانت البيانات التى كانوا يدلون بها ـ تميل الى عرض القضايا بطريقة شخصية. لقد نقل عن السيناتور «إيوجين ماك كارثى» ـ من «مينيسوتا» ـ أنه قال فى إحدى الجلسات الخاصة: «لدينا رجل جامح فى البيت الأبيض وسيكون علينا أن نتعامل معه بهذه الصفة»، كما أن السيناتور «البرت جور» ـ من تينسى، وصف جونسون بأنه «رجل يائس، يقودنا إلى دخول الحرب مع الصين، ويجب علينا أن نمنع وقوعها».

لقد غفل معظم النقد الذى وجه الى «جونسون» عن إدراك النقاط الأساسية؛ لقد كان جونسون متوهجاً بطبيعته، كما أن ردود أفعاله كان مبالغاً فيها، وكان

مخطئاً إلى النظر فى الأمور بطريقة شخصية ـ مثلما فعل المؤيدون للسلام «الحمائم» ـ ولكن سياسته كانت ببساطة ـ كما أشار هو فى كل فرصة ممكنة ـ ثمرة منطقية للسياسات التى اتبعها من سبقوه.

على أية حال، فى سنة ١٩٦٧ بدا أن الأسلوب كان هو القضية، ووصف المؤيدون للسلام جونسون بالوحشية، ووصفهم هو بالجبن، وكان مغرماً بإعلان «أنا رئيسكم الوحيد»، وكان يعنى بذلك أن أى نقد يوجه إليه، فهو ـ ضمنياً ـ عمل غير وطنى، وكان يطلب من النقاد القليلين الذين ذهبوا الى البيت الأبيض لمقابلته: «لماذا لا تنضموا إلى الفريق؟». وفى نوفمبر سنة ١٩٦٦، أبلغ جونسون الضباط الذين تجمعوا فى نادى الضباط، فى خليج «كامرانة»: «عودوا الى الوطن» حيث يوجد فراء الراكون (Coonskin) على الحائط». ولأن «دين راسك» ظل يردد كلامه عن ميونخ ومحاولة استرضاء هتلر، فسرعان ما التقط «جونسون» نفس الفكرة، فربط بين محبى السلام «الحمائم» و«تشامبرلين»، وبين الادارة الأمريكية و«تشرشل». أما «فولبرايت» فكان عنده رد خاص به: «إننا نعامل هذه الدولة الصغيرة، كما لو كنا فى مواجهة روسيا والصين معا».

وتصاعدت المعارضة، ولكن ربما كان جونسون محقاً فى يقينه بأن قوة تلك المعارضة كان مبالغاً فيها، ولم يحدث أن خاضت الولايات المتحدة حرباً من قبل، دون مواجهة نزاع داخلى. وسيكون مستحيلاً إثبات أن استياء مؤيدى السلام «الحمائم» من ڤيتنام كان أكثر عمقاً، أو صراحة من استياء «الهويج Whig*» من حرب المكسيك، أو من معارضة «الكوبرهيدز Copperheads**» للينكولن، أو حتى المعارضة التى واجهها روزفلت قبل «بيرل هاربر». ولم يكن هناك ـ على أى

(*) الهويج «Whig» : عضو فى حزب أمريكى، أنشئ ١٨٣٤، لمقاومة الحزب الديمقراطى ثم خلفه الحزب الجمهورى أوائل عام ١٨٥٤ (المترجم).

(**) "Copperhead": أمريكى من أبناء الشمال، تعاطف مع الولايات الجنوبية، خلال الحرب الأهلية (المترجم).

حال ـ موقف مباشر وصريح لمؤيدى السلام «الحمائم»، وإن اتفق نقاد جونسون ـ من اليساريين ـ على ضرورة وقف قصف فيتنام الشمالية بالقنابل، ولكن فيما عدا ذلك عجزوا عن أن يجمعوا شملهم، وراء برنامج عمل مشترك؛ فقد أراد بعضهم الانسحاب من فيتنام كلية، معترفين بالهزيمة، ولكن مع الاستمرار فى السياسة العامة للاحتواء، وكان انتقادهم موجهاً إلى الوسيلة التكتيكية: إن الولايات المتحدة قد بالغت فى انتشارها أكثر من اللازم. وأراد البعض الآخر استمرار الصراع فى فيتنام الجنوبية ـ لقد ظلوا مؤيدين ـ لسياسة شاملة للاحتواء واعترضوا فقط على قصف فيتنام الشمالية بالقنابل. بينما كانت هناك مجموعة أخرى من مؤيدى السلام، أخذ عددها يتزايد، لم تكن تنادى بالخروج من فيتنام فقط، بل ذهبت إلى أبعد من ذلك، وطالبت بإعادة دراسة سياسة الاحتواء كلها. وبالتالى سمحت الاختلافات العميقة ـ داخل المعارضة ـ لجونسون بأن يتمسك بأسلوبه.

واجه جونسون موجة النقد المتزايد بين عامة الشعب، بترديده أن التوقعات كانت تشير إلى أن النصر بات وشيكاً. وكان «روستو» فى طليعة تلك الحركة، حيث أخذ يزود الصحافة ـ بمنتهى الحرص ـ بأرقام منتقاة من أجهزة الكمبيوتر فى فيتنام، أثبتت أن الإدارة الأمريكية كانت فى قمة الطريق إلى النصر. وكان معدل خسارة الأسلحة ٤,٧ إلى ١ لصالح الأمريكيين، فى مقابل ٢ إلى ١، وهو المعدل الذى لم يكن فى صالح الأمريكيين فى ١٩٦٣، كما أن عدد الفارين من جيش العدو ارتفع من ٢٠,٠٠٠ فى ١٩٦٦ إلى ٣٥,٠٠٠ فى ١٩٦٧، بينما انخفض عدد الفارين من جيش فيتنام الجنوبية من ١٦٠,٠٠٠ إلى ٧٥,٠٠٠. كما أن قوات «الڤيث كونج» أصبحت عاجزة عن شن أى هجوم واسع النطاق. أما عدد السكان، الذين كانت تسيطر عليهم حكومة سايجون، فقد قفز من ٨ إلى ١٢ مليوناً، أو تقريباً ٧٥٪ من تعداد سكان الجنوب.

لقد أصرت حكومة جونسون على أن الاستخدام الساحق للقوة الأمريكية أخذ يحدث تأثيرات متراكمة، سوف تتصاعد حتى تجبر هانوى و«الڤيث كونج» ـ بمرور

الوقت ـ على الخضوع. لقد كانت خسائر العدو فى الجنوب تقترب من الكارثة، ومع ذلك فإن هانوى لم تعد ترسل مزيداً من القوات من ڤيتنام الشمالية إلى ڤيتنام الجنوبية لتعوض الخسائر، لأن حملة القصف فى الشمال أدت إلى إعاقة أعداد ضخمة من العمال والقوات. وأوضحت الوثائق التى تم الاستيلاء عليها انخفاض الروح المعنوية للڤيت كونج. كان هناك ضوءاً فى نهاية النفق، لقد بدأت الولايات المتحدة تفوز فى حرب الاستنزاف.

عندما فشل التحليل الجرئ، الذى أشاعه «روستو»، فى إقناع النقاد بالصمت... لجأ جونسون إلى حيلة أكثر إحكاماً؛ إذ طلب من الجنرال «وست مورلاند» الحضور إلى الولايات المتحدة، ليشرح كيفية إحراز النصر وتوقيته. وفى نادى الصحافة القومى، أعلن «وست» أنه «على ثقة تامة من أن العدو الذى كان منتصراً فى سنة ١٩٦٥، صار اليوم خاسراً للحرب بكل تأكيد»، ثم أعلن فى حديث للتليفزيون إنه يتوقع احراز النصر خلال عامين. وفى نفس الوقت، لجأ جونسون الى تكثيف القصف بالقنابل ليكون بمثابة آخر دفعة قوية تجبر «هوشى مينه» على الاستسلام، وفى منتصف نوفمبر سنة ١٩٦٧، بدأت أعنف سلسلة من الهجوم على جميع منشآت «هانوى ـ هايفونج».

وساد كل ذلك خيط رفيع: إن إحراز النصر العسكرى كان ممكناً وضرورياً. ورغم أن الإدارة الأمريكية قدمت الحرب على أنها محدودة النطاق والهدف، إلا أن النتيجة الوحيدة المرضية للولايات المتحدة ـ فى الواقع ـ كانت الاحتفاظ بحكومة سايجون فى السلطة، والذى كان معناه إحباط كلى لهانوى و «الڤيث كونج». لقد عبر «تاونسند هوبز» عن ذلك قائلاً إن الولايات المتحدة كانت ملتزمة «بحفظ وتثبيت وضع حكومة فى الجنوب، لم يكن بقاؤها ممكناً دون وجود عسكرى أمريكى واسع النطاق، تلك الحكومة ـ بحكم تكوينها ـ استبعدت الخصم الرئيسى من كل أشكال المشاركة السياسية، وبذلت كل جهدها لاعتقال كل من دافع عن فتح حوار مع جبهة التحرير الوطنية، حتى من غير الشيوعيين».

لم يكن من الممكن أن يكون الوضع مختلفاً عن ذلك، الاحتواء كان يعنى الاحتواء. إن أى حل وسط كان سيؤدى إلى اشتراك جبهة التحرير الوطنية فى سياسة فيتنام الجنوبية، وكان ذلك يتضمن حدوث مجازفة شديدة الخطورة وهى احتمال فوز الشيوعية فى نهاية الأمر، بما يعنى أن الشيوعيين لم يتم احتواؤهم؛ أى إن كل التضحيات التى بذلت ذهبت هباءً. إن «هوبز» أوجز الموقف قائلاً: «باختصار إن الرئيس جونسون ومستشاريه المقربين قد حددوا أهدافنا القومية وخاضوا الحرب، بحيث أن قبول تسوية سياسية كحل وسط، كان يعنى هزيمة مدوية لسياسة الولايات المتحدة ومكانتها فى العالم.. وهو ما لم يكن من الممكن مواجهته، كان النصر العسكرى هو الحل الوحيد للخروج من الأزمة». وطوال سنة ١٩٦٧، ومع بداية سنة ١٩٦٨، أصـرّت الإدارة الأمريكية على أن النصر كان ممكناً.

ثم جاء عيد «تيت». إن الهجوم الشيوعى الذى شن فى فبراير ١٩٦٨ ـ أثناء العطلة الدينية لعيد «تيت» ـ فجأة وبسرعة وحشية، أثبت بإسلوب مباشر ـ وإن كان مؤلماً ـ خطأ كل ما قاله «روستو»، و «وست مورلاند»، وكل ما قرره الحاسب الآلى. لقد نجحت قوات «الڤيث كونج» فى طرد الأمريكيين، وجيش فيتنام الجنوبية من مناطق فى الريف الى داخل المدن ـ فتحول برنامج التهدئة الى مجزرة ـ بل واستولت على بعض المدن. وفى سايجون تمكنت فرقة انتحارية من «الڤيث كونج» من السيطرة المؤقتة على أراضى السفارة الأمريكية. لقد اتضح أن الأمريكيين لم يكونوا مسيطرين على الموقف؛ إنهم لم يكونوا فى سبيلهم الى احراز النصر؛ إن العدو احتفظ بقوة وحيوية هائلة.

لقد اتضح من الرد الأمريكى على ما حدث فى «تيت»، جوانب كثيرة من الرؤية الأمريكية للحرب، والموقف الأمريكى من شعب فيتنام. وأحد الأمثلة على ذلك ما حدث فى العاصمة الثقافية القديمة لـ «هيو»، والتى كان «الڤيث كونج» قد استولوا عليها. إن الأسلوب الذى اتبعه الأمريكيون لتحرير تلك المدينة أثار ذهول

«داڤيد دوجلاس دونكان»، وهو مصور عسكرى شهير، له خبرة طويلة فى الحروب، «إن الأمريكيين سحقوا القلعة، وحولوا المدينة الى تراب ـ تقريباً ـ بالهجمات الجوية التى شنوها، وسباق النابالم، وطلقات المدفعية والبحرية، وطلقات المدافع المباشرة من الدبابات والبنادق... لقد كانت عملية استخدمت فيها كل الطاقات لاستئصال وقتل كل جندى من جنود الأعداء. إن تلك المجزرة والثمن الذى تكلفته، وقسوة العملية كلها تصيب الإنسان بالدوار.» لقد علّـق أحد ضباط المدفعية، قائلاً: «اضطررنا الى تدمير المدينة لإنقاذها».

إن الإدارة الأمريكية حاولت أن تتظاهر أن «تيت» كانت آخر نفس يلهثه العدو، ولكن ذلك التفسير لم يجد كثيراً من الأنصار. وفى ذلك الوقت، قام السيناتور «ماك كارثى» بتحدى الرئيس ـ فى الحملة المبدئية لانتخابات الرئاسة، فى «نيوهامبشير» ـ وأوشك على هزيمته. وأعلن «روبرت كنيدى» السيناتور الناشئ من نيويورك، اعتزامه دخول الانتخابات. لقد ترك «ماكنمارا» الحكومة بعد أن فشل فى إقناع جونسون بوقف القذف، ولكن ما أثار دهشة جونسون حقاً كان موقف «كلارك كليفورد» وزير الدفاع الجديد، الذى كان إنتمائه إلى «الصقور» معروفا فى نطاق واسع؛ إذ أنه طلب أيضاً وقف القصف. وهكذا، وجد جونسون نفسه فى مواجهة أزمة ثقة فى إدارته، وفى مواجهة هزيمة شبه مؤكدة ـ طبقاً لاستطلاعات الرأى ـ فى حملة الانتخابات المبدئية المنتظرة فى «ويسكونسين» ـ كما وجد أن الجميع قد تخلوا عنه، باستثناء حفنة صغيرة من المتشددين داخل إدارته. بالإضافة إلى ذلك أُصيب بصدمة عندما طلب منه «وست مورلاند» إرسال ٢٠٠,٠٠٠ جندى كقوات إضافية إلى ڤيتنام (مما كان يتطلب استدعاء قوات الاحتياط وتوسيع نظام الخدمة العسكرية). ولمواجهة كل ذلك، قرر جونسون أخيراً أن يغير سياسته العسكرية. وفى مساء الأحد ٣١ مارس ١٩٦٨ أعلن جونسون فى التليفزيون أنه قرر وقف قصف ڤيتنام الشمالية بالقنابل، باستثناء المنطقة الواقعة مباشرة شمال القطاع المنزوع السلاح، ثم ذكر انسحابه من انتخابات الرئاسة؛ مما أصاب الجميع بدهشة.

كانت نهاية مهينة. لقد كان جونسون ـ بكل تأكيد ـ أقوى رجل فى العالم ومن المحتمل جداً أنه كانت لديه أقوى إرادة وعزيمة. ومع ذلك، فإن عدداً قليلاً نسبيا من «الڤيث كونج» قاومت قوته وتغلبت عليها، وأنهكت عزيمته، وحطمت إرادته. إن الرجل الذى قدم للأمريكيين السود أكثر مما قدمه أى رئيس منذ «لينكولن»، وجد نفسه متهماً بخوض حرب عنصرية بوسائل عنصرية. لقد أراد أن يجلب الديمقراطية والرخاء الى جنوب شرق آسيا، ولكنه لم يجلب غير الموت والدمار. وفى أوائل سنة ١٩٦٥ كان قد استوعب هو نفسه درسين، أولهما: أن القوة على التدمير ليست هى القوة على السيطرة، وثانيهما: أنه قد وصل الى حدود نفوذه وقوته بل وقد تعداها. وحينما اعتزل الحياة السياسية، وعاد إلى موطنه المحبب إليه (المناطق الجبلية فى أواسط تكساس)، ظل هناك سؤال عالق بذهنه بلا إجابة: ما الفترة التى ستستغرقها بلاده، لكى تدرك أنها ـ أيضاً ـ قد وصلت إلى حدود قوتها ونفوذها، بل وتعدتها؟

obeikandl.com